العزف على الورق

بقلم/
حاتم إبراهيم سلامة

أهداء

إلى الإنسان القيم الذي عملت معه وعاشرته وصادقته، فكان نعم الأخ والصديق والناصح والمعلم، الذي استفدت منه وارتقيت على يديه، بما أبهرني من حسن خلقه ودماسة طباعه وسمو عاطفته وجمال نفسه، فلم أره يوما على خطأ، ولم أره يوماً جائراً، ولم أره يوما في موطن أعيبه فيه أو أستنكره من إنسان..إلى الأخ والصديق الأستاذ عبد الحميد عدي طابت ذكراك في كل مكان، مهما فرق بيننا الزمان والمكان.

مقدمة

مع الأيام يحلو لنا أن نقرأ كلمة جميلة، تنعش مذاقنا وتستحسنها آذاننا، وتمس أوتار قلوبنا، لكنني أخبرك أخي القارئ أن هناك كلمات وجمل، قد لا يتوفر لها قدر من الجمال الأدبي الذي يبهرنا، بقدر ما يتوفر فيها سلامة المعنى، فتصحح مفهوما، وتزيدنا معلومة، وتستنهض وعيا خاملا، وتنتشل السامع من جهل مفرط، وتضيف إلى رصيدنا المعرفي الذي يقربنا من الحقائق.

ومن هنا كانت المعرفة وعيا، وكان الوعي فهما، وكان الفهم إدراكا، وكان الإدراك يقينا، استلهمناه من الورق، الذي لا يحمل كلاما مكتوبا، بقدر ما يحمل في حقيقته عزفا يمتع عقولنا، تماما كما تستمتع الأذن بألحان الموسيقى.

هذه هي الصورة التي تتحول معها الكلمات إلى ألحان عذبة، تهيم لها وبها ومعها الروح والوجدان، وترتقي بها الأنفس والعقول.

لا ننقل مرويات، ولا نعيد قصصا، ولا نكتب عن شئ معاد ومعروف، بقدر ما نضع أيدينا على اللمسات الغائبة، التي تتخفى عن كثير من العقول، التي لم تتعود الغوص والتحليل، ورؤية الأبعاد المفيدة، التي تنير دروبنا إلى الغايات المنشودة.

الثقافة شئ عظيم، والمعرفة لذة عقلية، لا يشعر بها إلا إنسان أدرك سر السعادة في الحياة، ولكن هذه السعادة تتحول لجحيم يهدم كل القيم، لو بنيت على علم مغشوش، ومعلومات ذائفة، وأفكار معوجة باطلة.

ولتكن سطورنا خطوة تقترب من الصواب، وتنطلق من صدق الأفكار، وتنبعث من سلامة القصد، حتى يجد القارئ معها عزفه المنشود، الذي لا يمتع أذنه فقط، بل يمتع قبلها قلبه وعقله وروحه ووجدانه وأشواقه ومعارفه، فيرى القلم وهو يتقمص حال الكمان وأعواد الطرب، و ويكون عزفه الذي يفوق لحن الموسيقيين جمالا ونغما وإبهارا وطربا..

إنه.. العزف على الورق، وعزف الأفكار، وعزف القلم، نقدمه لعشاق المعرفة، وهوة العلم والأدب.

حاتم إبراهيم سلامة

أرجوكم لا تقرؤوا

هل تتعجب مني لو قلت لك يومًا: لا تقرأ، أو تندهش حينما تراني أقول للناس: إن القراءة صارت مصيبة فلا تقرؤوا! وأنت الذي تعلم عني دومًا، أنني من أوائل من يدعون إلى القراءة، ويربطون مستقبل أمتنا وتقدمها وعزها بامتطائها، بل يزيد دهشتك مني وأنت الذي تعلم أنني صاحب كتاب (اقرأ.. رسالة الوحي الأولى) ذلك الكتاب الذي ينادي أن تكون القراءة في حياتنا كالطعام والشراب؟!

ولكنني أقول لك: إذا رأيت علي يومًا أو مني شيئا غريبًا، فلا تتعجب حتى تعرف السبب، وأن تدرك أن هناك علة قوية، وشيء ما وراء الكواليس، جعلني أخالف ما أدعو إليه ليل نهار.!

وأنا اليوم أعلنها وأقول لصنف معين من الناس: أرجوكم لا تقرؤوا.. لأن قراءتكم ستكون وبالا على عقولكم وعلى من حولكم، لا تقرؤوا إذا كنتم من هذا النوع، الذي يقرأ بعينه لا بعقله، يسجل في ذهنه ما يراه بلا تَبصُر ولا فهم ولا تعقل ولا تمحيص ولا مقابلة، يستطيع بها أن يتبين الصحيح من الخطأ، والسليم من السقيم المعلول.. لأن الحقيقة الكامنة والمعلومة المؤكدة، أنه ليس كل ما يكتب يكون صحيحًا، وليس معنى أن بعض السطور تجمعت في كتاب أو صفت على الورق، أن تكون معصومة من الخطأ، ومن هنا لزم للقارئ أن يكون ذا عقل واعٍ حصيف ذكي مدرك، يستطيع أن يستظهر الخطأ ويقع على الزيف، من أول لمحة وأول سطر.

قرأت مؤخرًا كتاب (حكايات الجواري) لأحد الصحفيين، وكان الرجل يتحدث عن أثر الجواري ونفوذهن في حياة القصور وحياة الخلفاء، وفي الصفحات الأولى للكتاب، تعرض لهارون الرشيد، وذكر هيامه المفرط بالجواري، وولعه وعشقه لهن وبهن، ثم لكي يكون منصفا، ذكر أن هذا الرجل هو أغرب خليفة عرفته خلافة بني العباس، والذي كان قمة في التناقض، فهو الذي أثر عنه أنه كان يقيم في الليل مائة ركعة وكان يبكي من مواعظ الزهاد ويقرب العلماء إليه، ويحج عاما ويغزو عاما، ثم بعد ذلك يغرق لأقصاه في دنيا الجواري، حيث يجمع منهن في قصره ألف جارية، وينغمس في اللهو والمتعة ويقبل على كل ما يثير عواطفه وشهواته الحسية.!

ويبدو واضحًا من هذا الكلام أن كاتبنا لا يفهم شيئا، ولا يعرف من أين وكيف يؤخذ التاريخ؟ وكيف يميز صحيحه من سقيمه؟ كل هذا لأنه من أتباع القراء البصمجيين، الذين يقرؤون دون تبصر وتمحيص ودراسة ووعي، لأن كل الأخبار الواردة في فسق هارون الرشيد، وتصويره أنه من أهل المتعة واللهو والشهوات، إنما قصها كتاب الأغاني وهو كتاب ساقط منحرف، لم يترك نبيلا من المسلمين إلا وزج به في عالم اللهو والمتعة ومساخر الفسوق، ليشوه أعلام المسلمين، ويصور للدنيا أن هذه الأمة أمة لهو ومتع وشهوات، ولم تكن أبدا إلا أمة جد وجهاد واجتهاد، حتى الصحابة الكرام لم يسلموا من شره وزوره، ولو رجع القارئ إلى الكتب الصحاح المعتمدة، لما وجد شيئا من هذا الهزل في دنيا الرشيد، ولوجده من أعظم ملوك الدنيا وأقربهم وأعرفهم وأخشاهم وأتقاهم لله تعالى.

ومن هنا تأتي القراءة الواعية البصيرة.. كيف بالله عليك ينسجم في عقلك ويستقيم في ذهنك أن يكون هناك رجلا يقيم الليل كله بمائة ركعة، ويبكي من مواعظ الزهاد ويقرب العلماء إليه، ثم هو غارق موحول في دنيا الترف والشهوات إلى هذا الحد المذهل.؟!

والرجل مؤلف، وصنف للناس كتابا، وبدلا من أن يهتدي للفهم القويم، خرج بنتيجة معوجة ممجوجة غير مقبولة، وهي أن هارون الرشيد كان رجلا متناقضا.!

وهذا ما دعاني أن أقول اليوم وكلي إصرار: أرجوكم لا تقرؤوا، إذا كنتم قد ألغيتم عقولكم وأفهامكم وبصائركم أمام القراءة، وتعاملتم مع أي كتاب على أنه وحي من السماء لا يقبل النقاش والجدال والشك، أرجوكم لا تقرؤوا إذا كان هذا منهجكم وتلك طريقتكم، لأن القراءة وقتها ستزيدكم ضلالاً وظلاما وإفكًا وجهلا.

يقول الله تعالى:" افلا يتدبرون " و لم يقل أفلا يقرؤون، وهو فرق هائل وبون شاسع.

السلطة وريد الثقافة

الثقافة لا تتمدد ولا تتسع ولا تنتشر، إلا إذا دعمتها السلطة، ولقيت تأييدًا من السياسيين وأصحاب النفوذ والقرار.

ولهذا كان أكثر الأدباء الكبار حينما يريدون الترويج لأسمائهم، فإنهم لا يعتمدون على أدب ولا علم ولا مواهب، بقدر ما يعتمدون في المقام الأول على حزب يمتلك أعضاء في البرلمان، ووزراء في الحكومة، وصحيفة توجه الرأي العام، ومعنى هذا، أنه سيطل من أي هذه الوجوه على الجماهير ليُعرف ويشتهر، هكذا فعل العقاد، وهكذا فعل طه حسين، وقد كان زكي مبارك يتحسر على نفسه وأدبه، أنه لم ينافق ولم يسع لتأييد السياسة والأحزاب، ومن ثم بار أدبه، ولم يكن هناك من يحتفي به بما يقارع مكانته الكبار ويوفيه حقه.

كذلك الأفكار والمذاهب، إذا كان لها من تأييد السلطة نصيب، فإنها ستنتشر وتتوغل، ويدين بها القاصي والداني، انظر مثلا للمالكية في بلاد الأندلس والمغرب، فقد بدأت بتولية بعض المالكية الذين حرصوا بعد ذلك إلى تولية تلاميذهم وأتباعهم، حتى تسير البلاد كلها على المذهب المالكي وقد كان، وكذلك العثمانيين مع المذهب الحنفي، حتى صار صبغة كثير من المسلمين في بلاد الشرق.

والسلطة طريق يسير مختصر لانتصار المذاهب والأفكار وانتشار اللغة.

فإذا ما تم تأييد السلطة، فقد سهل بعد ذلك السيطرة على الجماهير، وإقناعهم بالأفكار والآراء، أهم شيء أن تأذن السلطة وتفسح المجال، بلا عوائق أو قيود.

لقد وقف السوفييت بجوار عبد الناصر، في تحديه للقوى الكبرى وبناء السد العالي، بنوا هذا السد بأموالهم ومهندسيهم، ولم يكن هذا التأييد لأنه حليف موسكو، ولابد من مناصرته والوقوف بجواره وتأييده، ولكن كان هناك ثمن، وثمن فادح، وهو أن يتولى الشيوعيون السيطرة على مقاليد الأمور في مصر، سياسيا واقتصاديا وثقافيا وإعلاميا، إلخ.

وانصاع ناصر لمطالب الروس مضطرًا أو متحمسًا، فلا يهمه شيء في مصر إلا زعامته وإرضاء شهوات الريادة في نفسه، فمكن الشيوعيين من أدوات الاعلام كلها من صحافة وإذاعة ومسرح وثقافة، وكان صديقه هيكل محاطا في الأهرام بأقطاب الشيوعية مثل محمد سيد أحمد ولويس عوض وصلاح جاهين، كما رتب الشيوعيون وخططوا للاستيلاء على دار اخبار اليوم من مؤسسيها علي ومصطفى أمين، فلفقوا لمصطفى قضية تخابر مع أمريكا وأودع في السجن، وصار

الطريق مفتوحا للسيطرة عليها، وصار محمود أمين العالم رئيسا لصحف الدار ، جريدة الاخبار اليومية ومجلة أخبار اليوم الأسبوعية ومجلة آخر ساعة، ثم كانت سيطرتهم على دار الهلال وأصبح أحمد بهاء الدين رئيسا لتحرير المصور كبرى مجلات الهلال.

وتوزع كثير منهم على مختلف الصحف بحيث صارت لهم السيطرة الكاملة على الاعلام، وهذا دوما من أساليب الشيوعية ومخططاتها للسيطرة على العقول من عهد لينين، وأما في الثقافة فقد عين ناصر د. ثروت عكاشة، الذي عين بدوره محمود أمين العالم مديرا للهيئة العامة للكتاب، وسعد كامل مديرا للثقافة الجماهيرية، وحمدي غيث وسعد أردش رؤساء أو نواب لهيئة المسرح، وكان التوجه وقتها كله شيوعيا بإيعاز من روسيا وتصديق من ناصر، وهو الغزو الاعلامي الثقافي الذي جعل الشيخ الشعرواي رحمه الله فيما بعد، يسجد شاكرا لله أن هزمت مصر في ٦٧، لأن النصر لو كان، فلن يكون لله وإنما لروسيا، أي أن الشيوعية ستتوغل أكثر وأكثر، حتى تتغير عقائد الناس.

وهكذا تلعب السلطة دورا كبيرا في تشكيل عقول الجماهير وانتصار الثقافات، ووأد الأفكار المغايرة وتقزيم حجمها ووجودها، ولعل هذه هي الفكرة التي أشار إليها أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه حينما قال: "إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن"

أدباء في محنة

الأستاذ (نجيب محفوظ) كان مثالا للأديب الفقير، الذي رأى في الفقر سببًا من أسباب الإبداع، ويحكى أن راقصة شهير رأته مرة يركب سيارة قديمة وسيئة، وكانت سيارتها مرسيدس ، فقالت له: شفت يا أستاذ نجيب الأدب عمل فيك ايه، ! فرد عليها : طبعا بقوله: وشفت وكمان قلة الأدب عملت فيكي إيه.!

وكان جبران خليل جبران في أسرة تعيسة، تتمرغ في أوحال الفقر المدقع فقد كان أبوه مشاغبا وأوقفته الشرطة أدانته وجردته من ثرواته، فارتبكت زوجته في كيفية إطعام أبنائها الأربعة، ففكرت في الهجرة وباعت كل ما تبقى لها من تركة والدها، واستقرت في بوسطن مع أولادها في كوخ مظلم مع الكلاب الضالة الشاردة، وبدأ عراكها اليومي وكفاحها في الحياة لإطعام أبنائها المساكين.

أما الأديب السوري (حنا مينة)، فقد عاش طفولته في إحدى قرى لواء الإسكندرونة، علي الساحل السوري، ثم عاد مع عائلته إلى مدينة اللاذقية، وكانت عائلة فقيرة عانت من التشرد، ولم يستطع أن يكمل تعليمه، كما أنه ولد عليلا يتهدده الموت، كان والده حمالا ولكنه فشل في رعاية عائلته، وكان سكيرا يشرب الخمر حتى يسقط فاقدا للوعي، وهو ما اضطر ولده حنا أن يعمل في مهن كثيرة في بداية حياته، حيث عمل حلاقاً وحمالاً في ميناء اللاذقية، ثم كبحار على السفن والمراكب، اشتغل في مهن كثيرة أخرى، منها مصلّح دراجات، ومربّي أطفال في بيت سيد غني، إلى عامل في صيدلية إلى صحفي أحيانًا وكان يقوم مع بعض الأطفال بالخدمة في الكنيسة وينام واقفًا، وهذه الحياة القاسية، انعكست على رواياته حيث قال عنها :"كنت أعاني البطالة والغربة والفقر والجوع وأحسد الكلاب لأن لها مأوى يأويها" وقد ساهمت هذه الحياة القاسية في إثراء انتاجه الأدبي فكان من أعماله قصصا تصور صراعه اليومي مع الفقر، وكانت أعماله ناجحة، لأنها كانت مفعمة بالإحساس، ومن وحي الظروف القاسية التي مرت بها نفسه.

ومما قرأت أن "الكاتب محمد الماغوط الذي كانت حياته مغلفة بالفقر والشتات والحزن، كما هي ميزة الشعراء الكبار أن يعيشوا الحرمان والبؤس والمرارة، فقد كان الماغوط، يفترش الألم مع عائلته التي كان الفقر بيتها الواسع والجوع رفيقها الأبدي إذ قال ذات مرة «الجوع ينبض في أحشائي كالجنين» ثم جاءت تجربة السجن قبل بلوغه العشرين والتي غيرته من إنسان بسيط، إلى كائن آخر يسكنه الرعب وتتقاذفه الكوابيس «السجن والسوط كانا معلمي الأول وجامعة العذاب الأبدية التي تخرجت فيها إنساناً معذباً وخائفاً». وإذا كان الماغوط ملكاً للسخرية في كلماته قصائده، فهذه التركيبة من السخرية والتلقائية والبدائية هي التي شكلت أعمال الماغوط وأعطتها تلك النكهة الفريدة وحولتها إلى أعمال درامية ومسرحية شهد لها بالروعة"

سحر الشهرة

يقال: إن حفيدة أديب كبير كانت في المرحلة الابتدائية، وطلبت منه كتابة موضوع إنشاء بدلا منها، فلما كتبه لها، أعطتها المعلمة أربعة من عشرة.!

لا أنسى مداعبة للأدباء، ابتكرها الكاتب الراحل أحمد رجب، حينما اختار مقالا قصيرًا قديمًا كتبه توفيق الحكيم، وعرضه على عدد من الكتاب والصحفيين، على أنه بقلم أديبة ناشئة، وطلب منهم الرأي في هذا المقال، فقال عباس محمود العقاد: وهذه سطور كاتب في منتصف الطريق يستحق التشجيع، وقال إحسان عبد القدوس: أفكار قديمة وأسلوب غير صالح للنشر، وقال أنيس منصور: والله أسلوب مش بطال، وقال أحمد بهاء الدين: هذا يشبه أسلوب توفيق الحكيم.

وكتب أحمد رجب الحقيقة تحت عنوان (آراء صريحة جدًا في أسلوب توفيق الحكيم)!

إنها الشهرة إذن يا عزيزي.. عليها نسبة كبيرة في تقييم الكاتب، واحترام أسلوبه، والوقوف أمامه بكل تقدير وتوقير، ولو أنه فقد هذه الشهرة، ولم يوضع اسمه على ما يكتبه، لخسر هذا المكتوب كثيرا من الاحترام والتقدير المطلوب.

وهكذا أيها الكاتب المبتدئ، أنت لا تعاني من التجاهل فقط، ولا تعاني من ندرة من يعترفون بفضلك وجمال أدبك، ولكنك تعاني من فقدان الشهرة، التي لو توفرت لك لكان لها مفعول السحر في الترويج لنفسك، فالمشهور تلهث الدنيا وراءه، لكنه للأسف لو قدم كتابه أو مقاله لأي مطبعة أو صحيفة، شريطة أن يحذف اسمه من عليه، فلن يهتم أو يبالي به أحد، فقد صار أكثرنا يعظم الأسماء قبل تعظيمهم للأدب والابداع.

الأديبة البريطانية (دوريس لسنج) الحائزة على نوبل لعام ٢٠٠٧م، أرادت أن تختبر موهبتها مع الناشرين، لتعرف انطباعهم عن أدبها، هل فعلاً يؤثرونه ويحتفون به؟ أم أنها مجرد عملية تجارية يربحون منها؟!

ولولا ثقتها بموهبتها لأصابها الإحباط من تصرفات الناشرين وردة أفعالهم المفاجئة، حتى عاجلها أحدهم برأيه، وأوجد خيطاً بين الزعم والحقيقة، وكان رائعاً فيما لاحظ ورأى!.

لقد أعدت رواية بعنوان (مذكرات جار طيب) وقامت بإرسالها إلى أحد الناشرين، واستخدمت اسما مستعارًا هو (جان سومرز) وذكرت أنها الرواية الأولى لها، ورد عليها الناشر معتذراً بعدم صلاحيتها للنشر، فكان أن أرسلتها لناشر آخر وتلقت الرد نفسه، ثم أرسلتها لناشر ثالث علق عليها بقوله: إنها قريبة من أسلوب (دوريس) في شبابها، ووافق على نشرها، وحينئذ اعترفت له

المؤلفة بالحقيقة، وقرر الاثنان جعل (جان سومرز) مؤلفة ناجحة، وحين صدرت الرواية تجاهلها معظم النقاد، ونتيجة لذلك رفض الناشرون إصدارها في طبعة شعبية تتوفر للجميع، وحين أذيع الخبر في الأوساط الأدبية، احتدم النقاش بين المثقفين وعموم الناس حول ما حدث، وبرز سؤال مهم ومثير، ما الذي نستخلصه من حكاية (جان سومرز)؟

وكانت الإجابة: أن دور النشر عاجزة عن اكتشاف المواهب وتعتمد تقديرها للأعمال على الاسم لا الموهبة، وتطبق المقولة القائلة: أنه لا ينجح إلا الناجح، أو كما يقولون: الشهرة تجر الشهرة أو المال يجلب المال، ومن جانب آخر.. فضحت هذه الحكاية النقاد الذين يقضون جهدهم، ويعطون مساحة كبيرة لنقد كتب المشاهير ويتجاهلون المبتدئين.!

ومن هنا كان كثير من أدعياء الأدب يركزون على الشهرة أكثر من تركيزهم على جودة إنتاجهم، لعلمهم أن الشهرة هي المفتاح الذي سيفتح لهم أبواب المجد، وما ينشدونه من طموح في الساحة الثقافية، فلجأ بعضهم لافتعال مشكلات عقدية وفكرية، حتى يتردد ذكره على الألسنة وتطفح به الفضائيات والمجلات، فإذا ما أقدم على الكتابة والنشر هرولت إليه كل المطابع والدور التي تبحث عن المال عن طريق كاتب سوق لنفسه.

انظر لهذه المرأة التي هاجمت الحجاب في كتاب ساقط اسمه (خالعات الحجاب) إن صاحبته ليس لديها أي نوع من الثقافة والمعرفة، التي تؤهلها لتكون في صدارة الصحف والبرامج والفضائيات، لكنها اليوم ولأنها كما تقول العامية: جابت من الأخر، صارت نجمة لامعة، تفتح لها كل الصحف أبوابها، وتستقبلها البرامج على أنها واحدة من رواد الفكر والتنوير، والحقيقة أنها لا شيء، ولا تساوي معارفها أي شيء، ويحتمل حتى أن يكون هناك من كتب لها هذا الكتاب.

لكن هكذا تفعل الشهرة وهكذا يكون سحر الشهرة.

هناك من يراك لأول وهلة فلا يحترمك ولا يقدرك، لأن سمتك وهندامك ومظهرك لا يبعث على شيء من هذا الاحترام، لكنه في ذات الوقت، لو عرف أنك فلان صاحب الاسم المشهور، لركع أمامك توقيرا واحترامًا.

إنه كما قلت لك: سحر الشهرة.!

ذكرني صديقي بالسهرة تليفزيونية التي تحمل نفس الفكرة عن كاتب شهير (كان يمثل شخصيته الفنان محمود المليجي) حينما تهجم عليه شاب في بداية حياته الأدبية يريد قتله، لأنه لا يجد فرصة وتتصاعد الأحداث ويوافق الكاتب الكبير على تحدي الشاب، وينشر روايتين واحدة له والأخرى للشاب، لكن يضع اسمه على رواية الشاب، واسم الأديب الشاب على روايته، ويراقبان النتيجة التي جاءت أسيرة لسحر الشهرة، حيث انصرف النقاد إلى مدح الرواية بناء على شهرة المؤلف لا غير.

الجميل في المسلسل هو المشاعر المتضاربة للكاتب الشاب، وهو يرى المدح والإطراء ينهالان على روايته وتضيع منه البوصلة، هل أنا أستحق المدح والإشادة أم لا؟؟ حقا إنها إشكالية.

القلم المقهور

ما هذا الذي سمعته من بعض أصدقائي؟ ياله من هول لا تصدقه أذني، وفاجعة لا يعيها عقلي؟! أهذا الحد المتدني يصل عقل الإنسان ويتعالى غباءه، وتتمرد نفسه العفنة، حينما يسيطر عليها الحقد والغل؟! أهكذا يكون المرء حينما يتفجر صدره ضيقًا وغيرة من أقرب الناس إليه، وأحبهم إلى قلبه؟!

إن صديقا أثق في حديثه روى لي بالأمس صورة من مأساة رهيبة، مأساة زوجة شابة تعشق القلم وتهيم بالكتابة، ولديها موهبة، ولها ثقافة كبيرة وعقل واع، وخيال خصب، ولكن زوجها الأهوج الأحمق، أصيب بغيرة من ثقافتها ووعيها وحبها للقلم والكتابة، فهو لا يطيق أن يراها تكتب، ولا يطيق رؤيتها منكبة على الورق، يُضيق عليها ويهينها، ويختلق أسباب الشقاق والخلاف، حتى يُتعس مزاجها، ويحزن نفسها، ويعكر صفاءها، حتى لا تكتب وتمل ألفة القلم.

ولكنها رغم ما هي فيه وما تُصبح وتبيت عليه، ورغم تسلط الزوج الحقود، ورغم غيرته وحقده اللذان يُحاصرانها في كل مكان، استطاعت أن تنتصر عليه، ولم يستطع هو أن يكسر رغبتها، ويقتل شغفها، ويميت مواهبها، فكانت تلجأ إلى معشوقها في الليل، حينما ينام الجميع، وبعيدًا عن عين هذه الزوج الحاقد الأحمق الظالم، كانت تقضي الليل مع قلمها، تبثه أشواقها، وتبعث إليه بحنين نفسها، ليترجم لها عن كل ما تريد من عواطف ومشاعر ومواهب وطاقات، وكأنه المخلوق

الوحيد في هذا الكون الذي يفهمها ويقترب منها، بل كانت إذا عنت لها فكرة طارئة تستحق التسجيل، تسارع إلى المرحاض (الحمام) لتكتب وتسجل خواطرها وأفكارها، بعيدًا عن عين الحقد والتسلط والطغيان، التي تترصدها لتوقع بها إن وجدتها متلبسة بالقلم والورق..

كانت الزوجة الموهوبة تكتب في غياب زوجها، وأثناء نومه، وفي المطبخ والمرحاض، وفي الساعات المتأخرة من الليل، فتحية لها على هذه المثابرة وهذا التحدي، ورثاء لها في معاشرتها لهذا الطاغية الأحمق، صاحب النفس المريضة الحاقدة، الذي لا ينال منا إلا كل توبيخ واحتقار.

ولا أعرف حقيقة من أي غباء صيغ عقل هذا الرجل وتكون فكره، إنني لأسعد كثيرًا لو كانت زوجتي بهذه الصورة، تحب الكتابة والقلم وتعبر عن نفسها وخواطرها في إبداع مكتوب، لأن معنى ذلك في المقام الأول، أن أولادي سيتشربون من أمهم هذه الخصال، فيتخرجون للدنيا مبدعين موهوبين، أو كتابًا أدباء، بل على العكس لو أنني كرجل سوي ووجدت هذه الرغبة من زوجتي أو ابنتي لأسرعت بتنميتها وتحفيزها ودعمها، ونحيت كل عقدي وأمراضي النفسية جانبًا، لأن المشاركة في مثل هذه الرغبات النفسية، مما يزيد السعادة والحب والوئام بين الطرفين!

لكن ماذا نقول في الحقد الذي يُعمي الإنسان رؤية كل شيء نافع ومفيد؟

كم أُكبر هذا الزوجُ الذي يسعى لرقي زوجته، ويسعد كلما تقدمت في دراستها وشهاداتها العلمية، لتكون أكثر ثقافة ورقيًا ووعيًا وتحضرًا، أسعد بهذا الزوج الذي يعرض مكتبته على زوجته، ويفتح لها خزانة معارفه، ويشجعها على القراءة، ويصحبها للمكتبات، ويشتري لها ما تشتهيه من المصنفات، ويدفعها دفعًا قويًا لما تنشده من طموح واعد ومستقبل مشرق.

أسعد به حينما يفعل ذلك، خاصة وهو يعلم أنها ستكون أرفع منه وأكبر في الشهادة والتقدير العلمي، والمستوى الدراسي.! وهو شيء يدل على أنه إنسان سَوِى معتدل راقي واعي متحضر، يتمتع بالسلامة النفسية، ويفهم جيدًا أن الزوجة المتعلمة المثقفة، لن يكون تقدمها العقلي والمعرفي، إلا تقدمًا إيجابيًا في حياته الزوجية، التي ترقى وتسعد كلما ارتقى عقل هذه الزوجة، التي مهد لها الطريق وساعدها لتثبت ذاتها.

وبعيدًا عن هذا النموذج المبهج من الأزواج، نأتي للمصيبة والبلاء الذي نجده في زوج يغار من زوجته، ويحقد عليها ويغلي ويهدر، حينما يجدها أرقى منه تعليمًا، أو أرفع منه منصبًا، أو أعلى منه ثقافة وأزكى معرفة ووعيًا، فبعضهم تزوج فتاة في منتصف تعليمها الجامعي، فأوقفها عن استكمال مسيرتها، لأنه لا يريد لها أن تحصل على تعليم يجعلها ندًا له ومضاهية لمستواه في نفس مرتبته.

وبعضهم حصلت زوجته على درجة الدكتوراه، فحول حياتها إلى جحيمٍ مستعرٍ، وجعلها تلعن كل يوم، تلك اللحظة التي حصلت فيها على هذه المرتبة العلمية.! وبعضهم كان يسب زوجته وينهرها بأقزع الألفاظ، كلما وجدها تقرأ كتابًا، أو تتلمس فيه سُبل المعرفة، لأنه حصل على تعليم متوسط بينما هي جامعية.!

إنه يؤمن تمامًا أن وراء كل عظيم امرأة، أما أن يكون العكس؟ فلا وألف لا!

متى يأتي الأمل

"الفيلسوف الألماني شوبنهاور ظل ٤٠ عاماً يكتب ويؤلف، ولا يشعر به أحد، أو يوليه بعض ما يستحقه من تقدير واهتمام، حتى بعد أن أصدر الجزء الأول من مجلده الضخم (العالم إرادة وفكر) فكان يمضي أيامه وحيدًا صامتاً لا ينطق أحياناً بحرف واحد لمدة أسابيع، ثم تولاه اليأس من أن ينال ما يستحق من التقدير والحفاوة العلمية، لقد عاش مجهولاً أو شبه مجهول، يفتقد الأصدقاء وتساوره الشكوك في الجميع، ويتذمر من كل شيء، ينام وقد وضع مسدساً محشواً بالرصاص تحت وسادته، ولا يسلم ذقنه لحلاق أبداً خوفاً من أن يتعرض لأذى أو للعدوى، كما يصحب معه كوباً جلدياً إلى أي مكان يذهب إليه ولا يشرب إلا منه، ويكتب حساباته باللغة الإغريقية القديمة، حتى لا يفهمها أحد غيره، ونشر الجزء الأول من مؤلفه (العالم إرادة وفكر) الذي صور فيه فلسفته الخاصة، فأبلغه الناشر بعد ١٦ سنة من صدوره، أنه اضطر ليبيع نصف الكمية كورق دشت للف البضائع.!

لقد تجرع مرارة الإحساس بالهوان وهو يرى كما يقول: التافهون يتمتعون بالشهرة والتقدير، وهو الذي أعلى لواء الحقيقة إلى أعلى مكان رفعه إليها إنسان يعيش وحيداً منسياً، وكره كل شيء واعتزل الحياة الفكرية وهو في سن الخامسة والأربعين، وانتقل إلى مدينة فرانكفورت، وعاش هناك وحيداً فتوقف عن الكتابة ١٧ سنة متصلة، لم يكن يفعل خلالها شيئاً سوى القراءة، وتناول وجبات الطعام في المطعم، وهو

يحدق صامتاً بالساعات في تمثال بوذا الذي يضعه أمامه على المكتب، ثم استعاد حيويته فجأة، ونشر مقالاً فلسفياً، ثم أصدر الجزء الثاني من مجلده، فإذا بالباحثين من كل الأنحاء يطرقون بابه، وإذا بالدعوات تنهال عليه من الجامعات الأوروبية، وإذا بالأوساط العلمية تلتفت إليه، وتضع على رأسه أكاليل المجد، وإذا بالشهرة تفاجئه وهو يقترب من سن السبعين، وهو يرقب كل ذلك متعجباً ويقول: بعد أن عشت حياتي وحيدًا منسياً جاءوا فجأة ليودعوني إلى قبري بالهتاف والتهليل!"[1]

ومنذ أكثر من ٦٠ عاماً وعلى صفحات مجلة (الهلال) تحديداً في أغسطس عام (١٩٥١م) شكا الأديب الموهوب المغمور (أحمد عبد الرحمن شادي)، تنكر دور النشر للإبداع والمبدعين، وتجاهلها للمواهب الصاعدة، ونشرها للكتابات الغثة، التي لا ترقى للتعبير المنصف عن الأدب الحقيقي.

كان ذلك في صفحة (إذا سألتني) التي كانت تُجيب فيها الدكتورة (بنت الشاطئ) على ما يرد إلى (الهلال) من أسئلة أدبية واجتماعية فقالت تحت عنوان: (الطريق شاق وطويل)

" الأديب عبد الرحمن شادي بالمنصورة يروي لي حديث كفاحه في سبيل الأدب.. أرسل لي بعض المجلات قصصاً ومقالات يراها أفضل بكثير مما تنشره هذه المجلات، فكان نصيبه الإهمال والإغفال، وحمل كتابين له ـ هما باكورة تأليفه- وطاف على الناشرين، فردوه رداً غير جميل، وقد بعث إلي كتابيه هذين، وسألني محتكماً إلى راضياً بحكمي: أمن الحق أن يضطهد مثل هذا الإنتاج في الوقت، الذي تلفظ لنا المطابع تفاهات غير جديرة بالورق الذي طبعت فيه؟

وقد قرأت ما كتب، وأشهد أنه على حق، إذ يراه أفضل من كثير مما تنشره مجلاتنا، لكنني لا أقره على المبالغة في التألم مما يسميه اضطهاداً، فالحق أن ليس في الأمر شيء من الاضطهاد، وإنما هي عادة الصحف.

والمجلات ودور النشر، تتردد طويلاً قبل أن تنشر شيئاً لأديب مغمور لم يعرفه القراء بعد.. ونحن جميعاً قد عانينا من هذا مثل ما يعاني الأديب، كما عاناه معنا كثيرون، ظلوا مغمورين لأنهم استعجلوا الظهور قبل أوانه، فلما أبطأ عليهم النجاح، يئسوا وظنوا بأقلامهم الظنون فحطموها كافرين.

وأُعيذ الأخ الأديب أن يكون من السذاجة، بحيث يظن أن كبار الأدباء اللامعين، ألفوا الطريق معبداً أمامهم منذ الخطوة الأولى! لقد صدوا كما صد غيرهم، وردتهم دور النشر رداً غير جميل، لكنهم صبروا، وظلوا يكافحون غير يائسين، مؤمنين بأقلامهم، وإن كفر بها أصحاب الصحف وتجار الكتب، لم يتخل

[1] - اندهش يا صديقي- عبد الوهاب مطاوع

عنهم إيمانهم لحظة، حتى فرضوا أقلامهم على صحف كانت تزهد فيها بالأمس.. فإذا كان الأخ مستعداً لأن يحتمل متاعب الخطوات الأولى في هذا الطريق الشاق الطويل، فليعكف على فنه ينضجه، ولينتظر في صبر ومثابرة وإيمان، ذلك اليوم الذي يستطيع فيه أن يفرض بضاعته الأدبية على الناشرين.

أما إذا تخاذل يائساً أمام الاضطهاد الأول فرحمة الله عليه!

وتبدلت الأفراح

كان حافظ القرآن في مصر قديما، يتمتع بقدسية أو حصانة تشبه تلك الحصانة التي يتمتع بها السياسيون وأعضاء البرلمان، وكان المصري الذي يوجد في بيته حافظ للقرآن، فإنه يعد بيتًا من البيوت المميزة التي ارتفعت مكانتها وعلا شأنها، وكانت هناك بعض القرى أو الأسر، حينما يختم ولدهم القرآن، يضربون طلقات النيران، وتزغرد النساء، ويعلنون نبأ البركة التي حلت في بيتهم، ويعقدون وليمة كبيرة وحفلة بهيجة، يدعون إليها الأهل والجيران، وكل سكان القرية، لكي يباركوا هذا الحافظ الجديد، الذي انضم لقافلة المباركين ، ويشاركوا أهله فرحتهم الغامرة.

بل كانت بيوت القرية تفرح بحافظ القرآن إن مر بشارعهم، أو دخل بيتا من بيتهم، أو كان صديقا لأبنائهم.

تقدير كبير لحامل القرآن، وحفاوة ضخمة بحافظه.!

وحينما تقرأ مثل هذه المواقف، كنت تشعر بمدى التدين الكبير الذي سكن قلوب المصريين، وحفاوتهم بالدين وأهله، وبالقرآن وحافظيه، وهو للأسف ذات الهوى الذي لا تجد أرواحهم تحمله وتهفو إليه في هذا الزمان..

تغيرات كثيرة حدثت، وقيم كثيرة تبددت.. لكننا مازلنا عالقين بهذا التراث وهذه العادات التي نعتز بها كثيرا، ولعلنا بالتذكير المتواصل فيما مضى من أخلاق وقيم، أن نحييها ونعيد الطلب إليها.

استطاع مسلسل الأيام أن يجسد هذه المصيبة التي حلت في بيت الشيخ حسين علي سلامة، والد طه حسين، حينما أدرك أن ولده لم يحفظ القرآن كما يدعي، وكما يدعي شيخ الكتاب، لأنه أهمل في المراجعة.

كانت كارثة كبيرة جدًا أفزعت كل من في البيت، وجعلت الشيخ حسين يصب جام غضبه على سيدنا شيخ الكتاب، حتى عهد بالفتى مرة أخرى، فختم القرآن بدقة وعناية، ورأى الفتى بعدها من الحفاوة والتقدير ما شكل منعطفا جديدا في حياته، وشعر معه رغم عاهته بأهمية نفسه ومقدار ذاته وانفراده وتميزه.

لقد كان القرآن الكريم هو الجرعة الأدبية الكبرى، التي جعلت منه أديبا وسلحته بالمعاني وصور البيان والأيلوب البلاغي الفصيح وهو ما اعترف به وأقره فيما ذكره أحد الكتاب : " ويكاد يكون من المسلم به عند كل مثقف عربي أن حفظ القرآن أو تلاوته على الأقل ذات أثر في القلم واللسان، سمعت طه حسين يقول لأعضاء المجلس الأعلى للتعليم، وهو وزير يرأس هذا المجلس ، سمعته يقول لهم معززا رأيه في الإكثار من النصوص القرآنية في المقررات المدرسية: أنا مدين للقرآن بأكبر قدر إّذا اكتسبت منه النطق الفصيح، والأسلوب القويم، ويحثهم على أن يكثروا منه في النصوص المقرر حفظها في المدارس."

وهو نفس ما حدث مع الفيلسوف والكاتب الكبير أنيس منصور، حينما حفظ القرآن وهو طفل في العاشرة في كتاب الشيخ سيد بقربة (نوب طريف) مركز السنبلاوين دقهلية. وارتدى يومها الجلباب الأبيض والطاقية البيضاء، والحذاء الجديد، وأيقظته أمه في ساعة مبكرة، وطلبت منه أن يصلي ركعتين شكرا لله، وصلت أمه إلى جواره، وطلبت من الله أن يحقق آمال ولدها ويحقق آمالها هي أيضا فيه، ثم دست في يديه قطعة من سكر النبات، حتى يجعل الله أيامه كلها حلوة..

أما أبوه فقد دعاه إلى أن يشرب معه الشاي بالنعناع كما كان يفعل كل يوم، ثم أسمعه أبياتا من البردة النبوية. وطلب منه أن يرددها وراءه. وقبله وتمنى له كل ما يرضيه في الدنيا والآخرة.

وفهم أنيس من الخادمة أنهم سيذبحون خروفًا جاء هدية من (عز الدين بك يكن) صاحب الأرض التي يعمل أبوه مفتشًا عليها.. ثم خروفًا آخر بعثت به السيدة (نعمت هانم يكن) وخروفًا ثالثا من العمدة و أوزًا وبطا من أناس كثيرين..

كان الناس ينظرون إلى أنيس نظرات خاصة ويدعون له بالبركة.

هكذا كانت المجتمعات والناس قديما، ينشدون البركة والخير في القرآن الكريم، والسعي إلى حفظه في عقول أبنائهم، بل لهذا كنت ترى المجتمعات القديمة، تتسم بالقيم والأخلاق وحراسة الفضية وحماية الاستقامة، أما اليوم، فماذا يحفظ أبناؤنا وما نحرص نحن أن نملأ عقولهم به، وبأي شيء كبير في حياتهم نحتفل بهم ونقدرهم فيه، وعلى أي شيء ينظر المجتمع كله للطفل بالتقدير والاحترام؟

كل شيء تبدل، كل شيء تغير.!

كانت الكتاتيب من مظاهر الزمن الجميل، التي اختفت مع كثير مما اختفى من قيمه ومباهجه وجمالياته.

كانت الكتاتيب هي الوجهة الأولى، ونقطة البدء التي ينطلق منها الناشيء نحو مستقبله الموعود والحلم الذي يسعى إليه، ودوره الذي يقوم به في الحياة.

لقد كانت تصنع العباقرة وتصقل الموهوبين وتزود الطالبين.

تعلم أن تستمع

هل هو طبع، أم تربية ، أم مرض نفسي يسعى إلى إبراز الذات، ولفت أنظار الناس؟ قد يكون هذا كله كائنا.

لماذا يحب كثير من الناس أن يعلو مقامهم وحده على الساحة، ولا يكونون على قدر من الراحة إذا صمتوا في مجلس أو لقاء، حتى نرى ألسنتهم تنطلق بالحديث الذي لا يكف ولا ينتهي، ليظل صوتهم وحده هو المدوي، ورأيهم هو البارز الظاهر؟!

أعجب كثيرًا بهذا الأدب الجم فيمن جعل الصمت خُلقه وديدنه في المجالس والمنتديات، لا يكثر الثرثرة، ولا يُجهد لسانه، إلا إذا طُلب منه الحديث، حتى وإن طلب منه، فإنه يُعبر بقدر المقل، الذي يحفظ سمته ومكانته وميزان شخصيته.

المشكلة أن بعض الناس قد يتخطى مرض الإعجاب بالنفس وحب الظهور والإصرار على شغل الأخرين بحديثه وحده، ليقع في مرض آخر أكثر وعورة ورداءة، وهو حينما يتخيل أن ما لديه هو

العلم والفهم الذي لم يهتد إليه أنداده وأقرانه، فهو مميز وعبقري وفذ، ومن ثم يسوقه هذا الظن الواهم للكلام والثرثرة بدون توقف.

كنت في ندوة بديوانية ثقافية في مدينة جدة، وكان اللقاء بمناسبة رحيل الدكتور عبد الرحمن السميط رحمه الله، وجمع اللقاء كثيرين ممن عاملوا الشيخ السميط، أو عملوا معه وشاركوه في عمله الخيري ورافقوه في مسيرة حياته، وتقدم أحد الصحفيين كان قد كتب عنه مقالا فيما سبق، وأخذ يلقيه من ورقة على الحاضرين، وتخطى صاحبنا الوقت المسموح له، وحاول مدير الجلسة أن يشير إليه وينبهه إلى انتهاء الوقت، لكن الرجل مسترسل في الحديث، قالوا له: انتهى الوقت، وهو مسترسل في الإلقاء غير عابئ بتنبيه أو توقيف، حتى كان المشهد قمة في السفاهة وقلة الاحترام التي ظهر فيها المتحدث، لقد ظل يقرأ حتى أوشك من ينهاه أن يقوم إليه ويكتم فمه بيديه حتى يُخرسه.

قد تظن أنك تمتلك الذهب، لكن غيرك قد يملك الجوهر والكنوز الفاخرة.

فعطاء الله ليس حكرًا عليك، أعط غيرك الفرصة وتعلم أن تستمع للآخرين.

كنا نشاهد مذيع البرامج الدينية في التلفزيون المصري الراحل الأستاذ (محمد عبد العزيز) رحمه الله وهو يتحدث أكثر من الضيف الذي استضافه، وكانت الحلقة تستفز المشاهد، إذ يخطف المذيع الكلمة من لسان الضيف، وإذا شرع الضيف في سرد فكرة من الأفكار، بادره الراحل ليخطفها من لسانه، مما قد يصيب العالم بشلل في استرسال الفكرة وفساد الكلام، وكنت أرى امتعاض والدي رحمه الله من هذا الترصد البغيض لأفكار الضيف، ويتهمه بالسخف وقلة الذوق، بل ويصوره بأنه قاطع طريق.

كان الرجل يريد أن يتكلم أكثر من الضيف، ولا يعطيه فرصة ليطرح فكره ويظهر علمه ورأيه، وكأنه يريد أن يقول له: أنا أعلم وأفقه منك، وأنك لا تأتي بالغرائب فكل ما تقوله أنا أعرفه وزيادة، وهو الحال الذي كنا نرى نقيضه مع الإعلامي الأستاذ (تهامي منتصر) الذي كان يُعطي الضيف فرصته، ويفرغ له المساحة اللازمة ليقول ويحكي ويُبهر ويُبدع، والأستاذ تهامي من هذا

النوع من الاعلاميين الذين كنت تشعر في طريقة عرضهم للضيف والتعامل معه، بالأدب الجم، والخلق الكريم، والتقدير البالغ لقيمة العالم والمفكر.

رأيت يومًا أستاذنا الدكتور صالح السامرائي رئيس المركز الإسلامي في اليابان، يُداعب صديقًا لنا فيه فكر وعلم، وقد قال له: من يراك ولا يعرفك، يقول عنك بأنك هلفوت، وأنت في ذاتك عَلَمٌ تركع له العقول، وقيمة كبرى لا تدانيها قيمة.. وهذا مما يشير لأدب المتحدث عنه، لأنه دوما يلتزم الصمت، ولا يصدع العالم من حوله، ويطالبه أن يعرف مكانته ويدرك قيمته، بل حتى لا يحرص من مظهره أن يعبر عن ذلك فهو زاهد لا يشغل باله بالناس وأقوالهم.

والأديب الكبير أحمد أمين كان يرثي أحد الأدباء الكبار وهو (علي بك فوزي) وكان مما رصد في أخلاقه هذه الخلة الذهبية التي لا يرقاها إلا المهذبون من تلقوا حظًا وافرًا من التربية الروحية والأخلاقية.

قال عنه أحمد أمين: " لم يفخر بعلمه وهو الواسع العلم العميق التفكير، يجيد العربية إجادة قل أن يكون له فيها نظير، ويتكلم اللغات كلها كأداة يتعرف بها الثقافات المختلفة، ويقف على أحسن ما يقف فيها، هذا إلى نصيحة في النقد وقوة في الملاحظة وشخصية آثرة بارزة، لا تخضع لأي مؤلف مهما عظم، ومع هذا كله تجلس إليه إن لم تكن تعرفه فكأنه أمي غبي جاهل بكل شيء، فهو ذهب خالص غطي بقشرة من طين لا تعرفه حتى تحكه وتصل إلى باطن نفسه."

فكأنه أمي غبي جاهل بكل شيء.!

من يستطيع عمل هذا إلا أهل النبل والسمو؟!

ومن هنا نستطيع أن نستنتج استنتاجا مهما ونيرًا وجيدًا وهو، أن الانسان الذكي الماهر الواعي، من يصمت ليسمتع ويتعلم، هو من يعطي فرصة للغير، ليرى من بعيد إبداعات الأخرين وآراءهم، فيأخذ بأميزها، وينهل من غرائبها، ويرتب بين دقائقها ليخلص إلى الإفادة المرجوة.

ليست شطارة أو نباهة أن تتحذلق بالكلام وتسابق الأخرين في الالقاء، وتأخذ المجالس لحسابك وحدك، وتزاحم أهل الفنون لتثبت لهم وأمامهم ذاتك وأنك أجدر وأعلم وأمكن.

اصمت رحمك الله وتعلم فن الصمت حتى تستفيد، وحتى تظلك سحابة النبل والأخلاق، فتكون في سمت لا يطالك فيه أبناء الملوك.

أديبات بلا قرآن.. عجبًا!

عجبًا.. كلهن تبهرهن مي!

كلهن يتخيلن مي!

كلهن يطمحن ليكن مي!

كلهن يأملن أن ينلن مكانة مي!

ولم تفكر إحداهن يومًا أن تسير على خطى مي، أو أن تقرأ ما قرأت مي، أو تهتدي للطريق الذي صنع مي، وبلاغة مي، وثقافة مي.!

لم تكن مي روائية أو قاصة، وإنما كانت مفكرة أديبة، ذلك الأدب الذي فقدناه اليوم بمعناه الحقيقي، حينما حاول السطحيون حصره وتجميده في القصة والرواية، حتى شب الفتية والفتيات، يتهافتون على تأليف القصص وصوغ الروايات، ظنًا منهم أنها الأدب، وغاية الأدب، ومقصد الأدب.!

إن الأدب صياغة قبل أن يكون فكرًا وخيالا، والذي لا يمتلك صياغة لأفكاره، لا يسمى أديبًا، ولا يمكن له أن يكون من الأدب في شيء!

ويبقى السؤال: كيف تنمو وتكبر وتثمر هذه الصياغة، حتى يحوز الكاتب لقب أديب؟

لا شك أنها قراءة كثيفة طويلة، وتقليب دائم في صفحات الأدب، وحفظ متواصل لجماليات اللغة وتراكيب البيان، وعناية فائقة بتراثنا العربي، ومن كتبه من أساطين البلاغة والبيان.

وهكذا فعلت مي، وهكذا استجابت مي لمن نصحها لعين البلاغة ومنبع البيان، وموئل الفصاحة، وهو الذي يغيب بكل أسف عن كتاب وكاتبات اليوم من فتيان وفتيات الرواية والقصة.

كانت إحداهن تخبرنا يومًا أنها عاكفة على روايات وكتب الأدب العالمي أمثال تشيخوف، وماركيز، ووليام فوكنر، وألبير كامو، وآرنست وغيرهم.. فكان ذهولي من هذا الإقدام الشره على روايات الغربيين، وإهمال تراثنا العربي عين البلاغة وغاية الفصحاء.!

كانت مي مفطورة على الثقافة الفرنسية، وكانت تكتب في جريدة والدها (المحروسة) تحت عنوان يوميات فتاة سنة ١٩١٥م، كانت تكتب بالفرنسية، غير أن بعض من حولها نصحها بدراسة اللغة العربية، ومطالعة الكتابات العربية الفصحى، فأخذت تقرأ كثيرًا حتى تكونت لديها ملكة عربية دفعتها للترجمة.

تقول مي في غرار تطور العربية في قريحتها: " قال لي الأستاذ لطفي السيد أثناء الحديث معي: لابد لك يا آنسة من تلاوة القرآن الكريم، لكي تقتبسي من فصاحة أسلوبه وبلاغته، فقلت له: ليس عندي نسخة من القرآن، فقال: أنا أهدي لك نسخة منه، وبعث لي به مع كتب أخرى، فابتدأت أفهم اتجاه الأسلوب العربي، وما في القرآن من روعة جذابة ساعدتني على تنسيق كتاباتي"

ولا أعرف اليوم لو أننا وقفنا أمام فتيات الروايات لنسألهن عن القرآن الكريم، ما حظهن منه ومن آياته؟ فلا شك أن الجواب سيكون مخز جدا، ومخجل جدا، لأنهن لم يتربين على القرآن الكريم، ولم يطرقن بابه، ونشأن منذ صغرهن وهن يرونه في بيوتهن، فيما يشبه الحجاب الحافظ، والحرز الواقي من الجن والشياطين، أما أن يكون كتاب نصر وعز وبيان وتمكين، ولغة وفصاحة، وحكم وحياة، فهذا مالم تدركه فتيات الجيل بكل أسف، وهو ما يدعونا أمام حبهن لمي، أن نجدد فيهن هذا الطريق الذي بلغ بمي ما بلغته من الفصاحة والبيان، والثقافة والمعرفة، علهن يُقبلن على كتاب الله قراءة واستعذابًا، فيخلق فيهن فصاحة تُعيد لنا سيرة مي واسمها الرنان، وأدبها الممتع.

ويل للكاتب من الجاهل

لا تكتمل سعادة الأقلام، إلا حينما تجد عقولا تستوعب أفكارها وما سطرته قطرات مدادها.

وويل ثم ويل ثم ويل للأقلام من عقول جاهلة غبية لا تستوعب وتفتقد التركيز والفهم، وتجري عليها الأحكام بمنطق الاشتباه دون تبصر وتبين، لتصدر التهمة التي يئن ويفزع لها صاحب القلم، فتجعله يدور حول نفسه، ويفتش في مكتوبه، ليبحث عما قيل ويتحسس ما اتهم به.

لازلت أذكر مقالا كتبته منذ فترة بعيدة تحت عنوان (الأذكياء المخدوعون) وكانت فكرته حول بعض العباقرة الذين يخدعون في كثير من الأفكار والأشخاص، فيؤيدونها ويحتفون بها ويكتبون عنها، ثم لا تلبث الأيام أن تفاجئهم بالحقيقة الكارثية، فيكتشفون أن عبقريتهم لم تسعفهم لبيان المخبوء عنهم، وكان من هؤلاء مثلا أمير الشعراء أحمد شوقي حينما مدح كمال أتاتورك بقوله:

اللّه أكبر كم في الفتح من عجب ** يا خالد الترك جدد خالد العرب

فكانت الأحداث مليئة بما جعل شوقي يندم على قوله، وفوجئت يومًا في إحدى النقاشات الحوارية، وكان الحديث يدور حول الإشادة بعبقرية الأستاذ أنور الجندي، فأدليت بدلوي في مدح المفكر الكبير، ثم فوجئت بمن يوجه إلي اتهامًا بأنني ادعيت أن الأستاذ الجندي كان مؤيدًا لعبد الناصر، ومن المدافعين عنه والداعمين لسياساته! وأخذت أسائل المتحدث عن مصدر هذا الكلام، حتى ذكرني بما كتبته قديمًا: بأن الأستاذ الجندي في بداية ثورة ٥٢ خُدع بعبد الناصر وكان معجبًا به، ومؤيدًا له حتى أنه ألف فيه كتابين، وأعد الثالث، ولم يطبعه حين اكتشف حقيقته ومواقفه السيئة من الديمقراطية والعداء للهوية الدينية، لقد أخطأ الجندي في التقييم رغم كونه المفكر العبقري، ولا شيء في هذا، ولكن الذي أفجعني هذه العقلية المأفونة، التي تعاملت مع النص بهذا الغباء وهذه الحرفية.

وحادثة أخرى، حينما كتبت مقالا تحت عنوان (كتابان جنيا على أمتنا) وهما كتاب الأغاني، وكتاب تاريخ الطبري، وذكرت في المقال خطورة كتاب الأغاني، ثم جاء الحديث عن الطبري وبينت فيه عظمة مؤلفه ومكانته الدينية والعلمية، لكن للأسف كان منهجه الذي اتبعه في كتابه، من جمع كل ما قيل من أخبار ومرويات حول بعض الحوادث صحيحة وغير صحيحة، مدعاة للتشبث بها من قبل العلمانيين والتغريبيين، الذين أغفلوا أو انتهزوا غفلة الناس عن منهج الامام الطبري الذي بينه في مقدمة كتابه، وأخذوا يروجون للمرويات الباطلة التي تشوه تاريخنا الإسلامي وتاريخ رجاله،

فإذا بكاتب ممن نحسبهم أنهم من المثقفين، ينبري لمعارضتي والهجوم على كلامي، والادعاء بأنني أتجنى على الإمام الطبري، ولم أفهم منهجه في التأليف، إذ كيف أذكر أن كتابه يتجنى على التاريخ، وقد بين فيه أن منهجه قائم على جمع الصحيح والمكذوب، وأنظر في كلامه فلا أجده إلا يردد ما قلته وكتبته، وأقول له أين الخلاف بيننا؟ فلا يذكر إلا أن الامام الطبري إمام عظيم ، حتى أعياني حواره ومحاوله توضيح المكتوب له، وراح يكتب مقالا دفاعًا عن الامام الطبري، وكأنني قد قلت للناس: إنه شيطان مُبين، وأن كتابه يجب الحذر منه وتجنبه، لخبثه وسوئه، حاولت أن أُفهِم المعارض فكرة الكلام الواضحة وأن غاية المقال تدعو قارئ الطبري قبل قراءته، أن يفهم منهجه، لكنه لا يقدر على الوعي والاستيعاب، فقد كانت الكلمة التي جاءت في العنوان وهي (جنيا على أمتنا) قد أحدثت في عقله شللا وتشويشًا في التفكير، فما عاد قادرًا على الاستيعاب والفهم، وكدت أجن من هذا التناول الهرائي و القراءة المبتورة للنصوص.

في أثناء تواجد المفكر الكبير عبد الرحمن بدوي في بيروت، وجد أن معهد الدراسات الشرقية الذي كان يقوم عليه مجموعة من اليسوعيين شديدي العداء للإسلام، وكانوا يثيرون كثيرًا من الشبهات والافتراءات والأكاذيب على الإسلام ورجاله، وينسبونها لبعض المستشرقين، ليتخيل القارئ أنها ذو مرجع علمي، وجاء طلاب المعهد يومًا للدكتور بدوي وسألوه: هل صحيح أن معاوية ابن أبي سفيان الخليفة الأموي قد اعتنق المسيحية؟ فقال لهم: من قال لكم هذا الكلام العجيب؟ فقالوا: إنه الأب لاتور، قال لنا ذلك في محاضرة الأمس في المعهد، وزعم أن هذا ورد في كتاب الدولة الإسلامية وسقوطها تأليف يوليوس فلهوزن، وقد قرأ بدوي هذا الكتاب من قبل، وقال للطلاب: هذا كذب على فلهوزن، فأنا أعرف كتابه جيدًا، ولو كان فيه خبر كهذا، لكان قد لفت نظري ونظر سائر من قرأ كتابه، وسأذهب غدا للقاء الأب لاتور، لكي يبين لي من أين جاء بها نقل إلي عنه، وفعلا ذهب بدوي للقاء لاتور، وأخبره بما نقل عنه، فجاء بالكتاب، وقال هذا الكلام وورد هنا وأشار إلى الصفحة، فقرأتها وإذا بها خالية من هذا الزعم تمامًا، وكل ما ورد فيها هو أن معاوية كان يريد أن يتشبه بالنظام الملكي البيزنطي في الحكم، لكنه لو كان قد فعل ذلك، لكان عليه أن يعتنق

المسيحية، فالعبارة في كانت في صيغة الشرط الماضي، أي لم يقع مطلقًا، ولو كان قد وقع لكان أدى إلى كذا.!

فقرأ بدوي العبارة وترجمها بالفرنسية وشرح معناها، وهو تماما عكس ما كان الطلاب يعتقدون، فتلعثم الأب لاتور وغص بريقه وقال: معذرة، فإني لا أحسن الألمانية، وقد قرأت العبارة بسرعة، ولم أدرك أنها في صيغة الماضي، فقال له بدوي: هذا الاعتذار لا يكفي، لأن الأمر يتعلق بهؤلاء الطلاب الذين أضللتهم بجهلك بالألمانية فيما تزعم، وعليك أن تُقر بذلك وتصحح الأمر لهم في المحاضرة القادمة، وسأحضرها لأكون شاهدا على إقرارك بالخطأ هذا، وفعلا اعتذر الرجل عن سوء فهمه للنص، وشكر بدوي على التبيين.

ولكنني بعد هذه الحوادث لا يسعني أن أقول وأنا أدعو الناس للقراءة: أن يتبينوا ما لا يفهمون، وأن يقرؤوا بحذر ووعي وفهم وإحاطة، وأن يناقشوا كتابات من يقرؤون لهم، حتى لا يضلون في الفهم والاستيعاب، وإن تشككوا في شيء فما عساهم أن يستوضحوا غبش ما اختلط عليهم حتى يتحركوا في مناخ بصير.

ننتظر مقالك عن البيضة

المشكلة أيها الكاتب ليست في غياب الأفكار عن عقلك، فالأفكار لا تغيب، إنها حاضرة ويمتلئ بها الكون من حولنا وحولك، المشكلة فقط في عقولنا نحن ومدى قدرتها على ورؤية واكتشاف هذه الأفكار، وكيف يحدث الفعل أمامك، ثم تنعكس فكرته في وجدانك وخيالك، المشكلة تكمن في ذكائك ونضجك، كيف لهما أن يلتقطا الخيط في أي موقف أو حدث ليهديانه لفكرة ثمينة تأخذ بالألباب.

وقد يكون الموقف تافها جدا جدا لأبعد حد وأقصى مكان، لكن الفكرة التي تنبعث منه عظيمة قيمة مؤثرة فاعلة، كتب أحد الأدباء يوما مقالا بديعا يتعلق بأخطر قضايا الإنسان في هذا الكون، إنها قضية الحرية والنجاة من أسر العبودية، فما ترى من أين استلهم الكاتب الأديب فكرته وانبعثت صياغته؟

لقد استلهم مقاله حينما رأى زنبارا أراد أن يخرج من شباك حجرته فاصطدم بزجاجه، وحاول مرارًا أن يخرج لكنه لم يستطع، وكان هذا المشهد التافه الضئيل، وبحث الزنبار عن حريته وكانت محاولته مرارا وتكرارا مهما صادفه من العقبات، مبعثا كما ذكرنا للكتابة عن أخطر قضايا الناس في هذا الوجود.

ماذا تقول لو حدثتك بأن فيكتور هوجو كتب يومًا عن برغوث؟

لا شك أنك ستستهجن هذا الحديث، وتستقل من قيمة الأديب الكبير، وربما تعقد عزمك أن تقاطع قراءة أدبه، أو تمزق ما لديك من كتبه إن كنت من أصحاب المكتبات وعشاق الكتب، لكنك لو عرفت أن كتب عن هذا البرغوث، وأنه أنقذ أمة من الأمم وشعبًا من الشعوب، كان يئن من حاكم طاغية ظالم جبار، لم يستطع أن يتغلب عليه أو يلزمه طريق العدالة، أو يبعده عن سدة الحكم، لأدركت قيمة هذا البرغوث وعظمة القصة التي بنيت حوله، وأنه كان منقذًا للبشر من أهوال الطغاة.

وتعد من أشهر مراثي الحيوان، مرثية ابن العلاف لهره، وقد كانت سببا في شهرته ليس لجمالها كما قيل، وإنما لرمزيتها السياسية، فابن خلكان يقول عنها: إن ابن العلاف كان يريد بها رثاء عبدالله بن المعتز الذي قتل على يد المقتدر ومطلعها:

يا هر فارقتنا ولم تعد وكنت منا بمنزل الولد**
فكيف ننفك عن هواك وقد ** كنت لنا عدة من العدد

وقد عارضها الوزير ابن العميد بقصيدة لامية يقول فيها:

ياهر فارقتنا مفارقة عمت جميع النفوس بالثكل**
لو كان بالحادثات لي قبل إذن أتاك الصريخ من قبلي**

وفي العصر الحديث كانت مرثيات الأديب الكبير سيد قطب في القطط، قصيدة عن هِره سوسو وأخرى عن قطته نوسة، والتي قال عنها: إنها كانت تحتلُّ مكان الطفل الحبيب وتشغل فراغه من نفسه وزمنه، فكانت تمنحه "الودَّ والثقة والدعابة" ثم ماتت بين يديه، وهو مما يدل على الرحمة، وينمي طباع العطف والشفقة والرقة بالضعفاء.

هذهِ كَفي وقَدْ مرَّتْ عليكِ في حنانٍ وارتياعٍ وولوع
لمْ تحُسِّها ولمْ ينبض لديكِ قلبي النَّابضُ مِن بينِ الضُّلوعِ
هذهِ الكفُّ التي كمْ دلَّلتك، وسدتك اليوم أطباقَ الثَّرى
أيٌّ حاليها تُرى أحنى عَليكِ؟ ليتَني أدري ومَن فينا دَرى؟

كثيرة هي الصغائر التي نسخر منها ونستهين بها في حياتنا، ولو تأملناها جيدا، لعلمنا أن فيها خيرا كثيرا، ومنها فتحا عظيما، وخرجنا منها بأعظم الأفكار، وأنضج المعاني، فقط المشكلة تكمن في عقولنا نحن ومدى مقدار وعينا وثقافتنا في قراءة الواقع المحيط بنا.

إذا كنت تشكوا قلة الأفكار، فلتعلم أن العيب ليس في الأفكار، وإنما فيك أنت، وما عليك إلا أن تعالج نفسك باقتحام ميدان الثقافة والعلم والتعلم والحفظ والمدارسة والاستماع، اجتهد أن تبني عقلك، وتطور من وعيك، وتصقل فهمك، حتى تزول هذه الغشاوة الكثيفة بينك وبين الأفكار، فتلمحها وتقرأها وتشاهد جموعها وغزارتها، تلمح صورتها فقط من مجرد حركة أو همسة، ويتعجب الناس كيف استلهمت معناك من هذا الفعل الضئيل؟!

بل العبقرية في قدرتك ككاتب على ربط كل ما هو ضئيل حقير، بما هو كبير عظيم.

ومن المبهرات أن الأديب والباحث الكبير أحمد أمين، كتب يومًا عن الكتكوت، وما أسرع ما يتهمه النصوصيون الظاهريون بالتفاهة، لكن الرجل ربط بالحديث عنه، بين كثير من المعاني الحياتية والثقافية المهمة الملحة، والمفزعة أحيانا، فكان رائعا قويا في طرحه، فقد عرج به إلى الحديث عن مشكلة اللغة والاسماء الغريبة الواردة عليها، ونوه في رقته ووداعته بغدر البشر وقسوتهم ونفاقهم، بل ذكر فيه حيرة الفلسفة وسر الوجود، وجعل فيه معاني الحياة وغوامضها وأسرارها، بل جعل فيه كل مظاهر الانسان على تبجحه وغروره، وكل ما حير العقول قرونا وأجهد الفكر أجيالا.

نعم كل هذا من الكتكوت.! فلا تتعجب إنها الثقافة وإنه الفكر والوعي، الذي لو ملكته لربما حدثتنا في مقال قادم ليس عن الكتكوت، وإنما عن مجرد بيضة يتمثل فيها سر العالم.!

الألسنة المتغربة

الشباب الذين ينبهرون بالغرب ويتحدثون عن رجاله وزعمائه وأدبائه، معذورون لأنه لم يتربوا في مناخ أو بيئة، تتيح لهم معرفة حجم ما ينسبون إليه من حضارة وقيم وهوية وزعامة وتراث، بلغ من العظمة والابداع ما لم يبلغه تراث أمة من الأمم.

حتى المستمعين أنفسهم ينبهرون بهذا اللون من الثقافة المتغربة، واللسان الذي ينهل من المعين الغربي، فحينما يكثر المتحدث أو الكاتب، بصور وأسماء ومواقف وآراء غربية، يتخيلون أنه المثقف الحق والمطلع المتين، بينما هو في الحقيقة الجاهل المفرط، الذي لم يدرك حجم تراثه ولا قيمة ذخائره.

إن الغزو الذي تعرضت له أمتنا، لم يكن في الميدان العسكري وحده، ولم يكن في دنيا الفكر وحدها، بل أيضا في الميدان الأدبي، على الذين يفرقون بين الفكر والأدب، لكنه جانب شدد المستعمرون تركيزهم عليه، فلقد شبت هوجة غامرة ابتلعت عقول القراء والمثقفين نحو تراجم الآداب الانجليزية والألمانية والفرنسية والروسية، ووقع الشباب فريسة لهذا الغزو، فتوغلوا في هذه القراءات، معرضين عن تراثهم الذاخر، الذي صاروا لا يعرفون عنه أي شيء، وقد ضحكت ساخرًا من مشهد حكاه أحد الأدباء، وهو يشكوا ضعف الصلة بين قرائنا وبينا جذورنا الأدبية حيث قال: " زارتني أديبة إنجليزية منذ أعوام ودعوت شابًا من هواة الأدب أن يكون معنا، فكانت الأديبة تكلمه عن المتنبي وشوقي وبديع الزمان، ويكلمها هو عن شكسبير وإليوت وديكنز، حتى لم تستطع الأديبة الانجليزية آخر الأمر أن تتمالك نفسها فقالت: لك أن تكلمني عن أدبائي ولكن بشرط أن تكون قد درست أدباء لغتك أولا، فأنا لم أجرؤ على دراسة الأدب العربي إلا بعد أن فرغت من دراسة الأدب الانجليزي وامتحنت فيه ونلت شهادتي"

وهكذا لا قيمة لمن لا أصالة له واستمد قوته من جذوره.

وأعود مرة أخرى لألفت الانتباه بأن الغيظ الكبير، ليس من هؤلاء المتلقين للثقافة الغربية، بقدر ما هو في جانب المستمعين، حتى يتبين لك أن الدونية صارت وباءً معديًا أصاب الجميع حين استهانوا واستقلوا بألمعية تراثهم وجماله وإبهاره.

لكننا لابد أن نسجل للتاريخ، أن الجيل الماضي من الأدباء الكبار كالعقاد وطه حسين وغيرهم، وقفوا أمام هذا التوجه بما طرحوا من آداب وأفكار أشادت كلها بعلو كعب الأدب العربي، وأنه أساس التكوين للأديب الذي يسلك الطريق القويم للأدب.

فرق كبير بين الخيال الذي هو كشاشة التلفاز وبين الأديب الذي يبهرك سحر ببيانه وجمال أسلوبه حتى ولو لم تكن هناك قصة شاغفة.

والذين يكتبون مهما بلغوا قمة التصوير والخيال لن ينضموا لصفوف الأدباء، طالما كانت صلتهم مقطوعة بتراثهم العظيم.

نقل إلينا بعض فقهاء الكتابة نصيحته البالغة الحكيمة حينما قال:

" لا تحسبن يا ولدي أن بدراستك لقواعد النحو والإملاء والبلاغة والصرف والتحويل، أنك ستكون كاتبًا ماهرا لا يُشق له غبار، كما يظن كثير من جهلة الدارسين، كلا بل مُصاحبة الكتب والعيش في أحضانها وسبر أغوارها، هو السبيل إلى تفتق الذهن، والخروج من شرنقة الركاكة والعي والحصر.. فبعد دراسة النحو عش أيامك وشهورك مع كتاب البيان والتبيين للجاحظ، والكامل للمبرد، وزهر الآداب للحصري، وعيون الأخبار، وأدب الكاتب لابن قتيبة، والأمالي للقالي، والأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، مع الوعي بما فيه، وأطل النظر في مقاييس اللغة لابن فارس، وفقه اللغة للثعالبي، ولسان العرب لابن منظور، فإن لم تفعل هذه الأشياء مجتمعة فدعك من الكتابة، لست منها ولو سودت وجهك بالمداد"

كان هذا على مستوى طالبي الأدب من هواة الكتابة، وهو نفس النصح نعرج به للمثقفين من طلاب الأدب ومتذوقيه ودارسيه.

حناجر الكافرين

قال لي صديقي يومًا: مالي أرى كتاباتك تكتظ بأسماء العلمانيين والماركسيين، وتحكي في كثير من سطورها من أحوالهم ومواقفهم وشؤونهم؟!

لا يليق بمن ينتهج الخط الديني، وأزهري التعليم، أن يذكر هذه الأسماء أو يحكي عنها أي شيء، لأن هذا الذكر قد يوهم القارئ أنهم خير وصواب، ويوحي إليه تصديق أقوالهم واقرار ضلالهم.!

وماذا أفعل إذا كان الاسلاميين لم يخوضوا هذه الميادين فيكتبوا في الأدب، ويدونون سيرهم الذاتية حتى يقرأها الناس ويستمتعوا بآدابها، ويعيشوا معهم مواقفهم وما واجهوه من أحداث الدنيا وتجاربها؟

ها هم علماؤهم لايرون أن القلم يمكن له أن يكتب شيئًا إلا أن تكون في نطاق الدين، بل يعدون كتابة الأدب والسير الذاتية مضيعة للوقت أونوعا من التهريج، ومن ثم لم يُقبل على كتبهم غيرهم ومن يتبعهم، انظر لكتابات الراحل عبد الوهاب مطاوع، التي كان الشباب يتهافتون عليها، ويتسابقوون على التهامها، فلم يكن الرجل يكتب عِلما أو يُنّظِّر فنا، ولكنه كان يغترف مما يقابله من حياته اليومية من تجارب ثرية، ويمزجها بأسلوب أخاذ يسلب اللب والوجدان، واحد فقط كان لكتبه نوع من الصدارة في ميدان العلم والكتابة الدعوية، وهو الشيخ الغزالي رحمه الله، لأنه كان يعتمد أحيانًا هذا المنهج الأدبي ويغمس سطوره بكثير من تجاربه وهمومه، منذ أيام كتبت أقول: " أحاول الآن نصيحة من يكتبون ، أن يمزجوا كتاباتهم بتجاربهم الشخصية وقصصهم الواقعية، ومواقفهم الذاتية، التي تجعل روحك قوية وحاضرة في المقال، وتشعر القارئ أنك تقدم جديدًا وأثيرًا يستحق التعرف عليه.. وعلى قدر ما نجد المتعة في كتابات القرضاوي، إلا أن كتابات الشيخ الغزالي أمتع بكثير، لأن القرضاوي كان يكتب عن الدعوة، أما الغزالي فكان يكتب وكأنه صاحب الدعوة، تشعر في سطوره بهمومه وأثقاله الضخمة الكبيرة.

كان هذا أيضًا أسلوب الكاتب الانجليزي جورج أورويل، الذي كان يكتب وكأنه يتكلم، ومن العرب كان هذا أسلوب الكاتب أحمد بهاء الدين، الذي كان يحشد حديثه بمواقف حدثت له وقصص حقيقية عاينها بنفسه.

هل تتخيل يا أخي أن يرحل عن حياتنا منذ أيام، مفكر مهول كالدكتور محمد عمارة، دون أن يترك لنا كتابا يحمل سيرته الذاتية، التي تضم لنا رحلته ومواقفه في الحياة؟! ربما لم يكن الرجل متفرغا لهذا النوع من الكتابات، ولديه أولوية في مشاريعه الفكرية، لكنني أؤمن أن قطاعًا كبيرًا من القراء كانوا يتمنون قراءة رحلة حياته، وعلى ويستطيعون أن يستلهموا منها كثيرًا من الأشياء[1]، والراحل

[1] - أخبرنا ولده الدكتور خالد عمارة أن والده الراحل الكريم ترك مخطوطة تحمل قصة حياته وأوصى بطباعتها بعد رحيله في وقت معين

محمد الغزالي، كتب بضع صفحات عن حياته، فكانت من أمتع ما كتب وسطر، بل كان من أروع ما كتب القرضاوي ما سجله عن سيرته الذاتية في أربعة أجزاء، تحمل التاريخ والدين والعبرة والأدب والمتعة وكل شيء، وهكذا حينما نكتب في مجال الأدب والاجتماعيات والإنسانيات التي تحمل هموم الناس وعللهم ومشاعرهم ومشكلاتهم؟ لا نجد غير هؤلاء الذين نتنكر لهم، من يمتعونا في ميداننا الذي نكتب فيه، ومن ثم نستشهد بهم، لكننا نؤكد شيئًا مهمًا وهو أن جهل القارئ، لن يكون حائلا بيننا وبين ما نحب ونشتهي من الكتابات، والاقتباسات حتى ولو كانت من كافر لا يؤمن بالله تعالى، مادام لا يضر ولا يخالف ولا يسيء.

في كتابي الأخير دهاليز الكتابة، صدرته في أول صفحة فيه بجملة عن فولتير، لم أقرأ ولم أسمع أروع منها في تجسيد لقيمة ومكانة القلم حيث قال: (إذا لم يكن في يدي صولجان أليس في يدي قلم) هذه الجملة الرائعة إذا لم يصدر بها كتاب يحكي فن الكتابة، فبأي شيء يصدر إذن؟! ومن ثم كانت أليق شيء نستهل به الكتاب رغم ما لفولتير من كتابات معادية للدين والألوهية، بل رغم ما له من آراء صادمة في مصر والمصريين، واتهامه لهم بالانبطاح والعبودية والجبن والسلبية وتقديس الظلمة والطغاة.

قال صديقي يومًا وهو في قمة التهكم: انتا مستشهد بتوفيق الحكيم؟ وكأنه يريد أن يقول لي شيئا آخر يعبر عنه هذا التهكم، بأنك تستشهد بأهل الضلال، ومن ثم لا قيمة ولا نفع مما كتبت، وهذه العقول الظالمة المظلمة، تحتاج إلى تنوير كبير، وفم ووعي يتناسب مع الفكر اللائق والملح الذي ينهض بالعقول والأفهام والأمة، لقد كان نبينا ﷺ عليه يفطن لهذه المشكلة أو الشائكة ومن ثم قال: "الكلمة الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها."

وعلى هذا الفهم سار كثير من العلماء الفاهمين الواعين، فالفيلسوف الكندي كان يقول: خليق بنا ألا نخجل من الاعتراف بالحقيقة واستيعابها مهما كان مصدرها.

ويقول ابن رشد: يجب علينا أن نستعين على ما نحن بسبيله بما قاله من تقدمنا في ذلك، سواء أكان مشاركا لنا في الملة أو غير مشارك طالما كان صوابًا.

وكان جمال الدين الافغاني يقول: إن أبا العلم وأمه هو الدليل، والدليل ليس أرسطو بالذات، ولا جاليليو بالذات، والحقيقة تلتمس حيث يوجد الدليل.

ويقول القائل :

لا تحقرن الرأي وهو موافق ** حكم الصواب إذا أتى من ناقص.
فالدر وهو أعز شيء يقتنى ** ما حط قيمته هوان الغائص.

خيانة ثقافية.!

من عادة الطغاة دومًا أن يحاربوا الثقافة والفكر.. فهم يدركون أن المثقفين أخطر عليهم من الأسلحة والرصاص والمدافع.. وأن الارض لا تتسع لكليهما، فإما فسادهم، وإما ما ينادي به المثقفين من معاني الحرية والإنسانية والعدالة والمساواة، فالمثقفون يملكون القدرة على توعية العقول وتنبيه الأذهان، وإرشاد الجماهير إلى الحرية والعدالة، ولفت الإنسان لقيمته ومكانته وحقوقه، التي لابد أن يقاتل لتحقيقها في الحياة.. ولو حدث ذلك، فهي النهاية الأكيدة للظالمين والمتجبرين والمستبدين.!

وهو التصور الذي حاول الأديب العالمي الكبير (شكسبير) أن يصوره في مسرحيته (يوليوس قيصر) حينما قال قيصر لأنتونيو: (لو كان قيصر يخشى أحدا ويتجنبه.. فليس هناك أحد أجدر بهذا الأمر من ذلك النحيل (كاسيوس) إنه عاكف على القراءة، ولا يخفى عليه شيء، وهو كثير التأمل والتفكير في كل ما يقوم به الناس من أعمال، كما أنه يكره اللهو ، ولا تكاد الابتسامة تعرف طريقًا إلى وجهه، ومثل هذا الرجل لا يمكن أن يأمن الإنسان جانبه أبدًا)

وهكذا صار هذا الرجل النحيل الذي لا يعرف شيئًا في الحياة سوى القراءة والتفكير وتأمل الناس والأحداث، هو أعدى أعداء قيصر، ومن يخشاهم أكثر من خشيته من الفرسان المدججين.. ولم تلبث الأيام أن صدقت حدث قيصر حين أصبح كاسيوس زعيمًا لمعارضي قيصر والمتآمرين عليه..

وعداء المثقفين وبغض المستبدين لهم، شعور إنساني يمتد ويطول مع امتداد الزمن وطوله، وتجده من أولى سمات المستبدين، ونقصد بالمثقفين أولئك الذين يخدمون الأمة بثقافتهم، ويسعون لخير البشرية ورقي الإنسان بما يدعون من الحرية والمساواة، وليس المثقفين أولئك الذين ركبوا الموجة،

وتاجروا بعلمهم ومعارفهم، وباعوا ضمائرهم وخانوا ثقافتهم وجعلوها مطية لأربابهم الذين يدرون عليهم الاموال والعطايا والنفوذ.

وإذا لمسنا هذه الصورة قديمًا في أدب (شيكسبير)، ففي الزمن الحديث وفي الواقع المشاهد كان (هتلر) أشد أعداء الثقافة والفكر، حينما أمر في عام ١٩٣٣م بحرق كل الكتب التي تعارض النازية في الميادين والساحات العامة في كل المدن الألمانية، لأنه كان يكره العقل الحر والفكر المستنير، فهما العقبة أمام استبداده وتسلطه، وأراد من الألمان أن يلغوا عقولهم فلا يرون إلا رأيه ولا يتكلمون إلا بكلامه، ولا يفكرون إلا بتفكيره وهذا ما حدث، فلم يكن هناك مكان لرأي آخر، أو وجهة نظر مخالفة ، لم يكن هتلر وحزبه الغبي، يخافون من أي شيء مثل خوفهم من الثقافة والفكر الحر المستنير المستقل، وكان أعوانه وعلى رأسهم وزير إعلامه (جوبلز) يؤمن إيمانًا أعمى بهذا المنطق ويقول قولته الشهيرة: (كلما ذكرت كلمة مثقف تحسست مسدسي)، واستطاع (جوبلز) أن يفرض وجهة النظر النازية على كل ما كان يصدر في ألمانيا بعد استيلاء الحزب، وقرر أن يحاكم كل ما صدر قبل عصره من كتب وآراء وأفكار، وكان يرى أن كل ما يسبق الحقبة النازية من إنتاج ثقافي، جريمة فكرية كاملة تستحق العقاب والمقاومة، ففي نفس السنة التي تولى فيها السلطة عام ١٩٣٣م وبعد حوالي ١٠٠ يوم، يحدثنا (وليام شيرر) في كتابه (ألمانيا الهتلرية) عما حدث في ليل أحد الأيام فيقول: وصل عرض قام به ألوف من الطلاب يحملون المشاعل عند منتصف الليل إلى ساحة عامة تقع مقابل جامعة (برلين) في شارع (أونتردن لندلن)، وسرعان ما اشتعلت النيران في كومة هائلة من الكتب وضعت على الساحة ، ثم بدأ الطلاب يقذفون بالكتب في النار المشتعلة، إلى أن بلغ ما أحرق منها نحو عشرين ألفا، ووقعت مناظر مماثلة في مدن أخرى، وهكذا بدأت عمليات إحراق الكتب، وكان الكثير من هذه الكتب التي التهمتها النيران في برلين تلك الليلة، على مشهد من الطلاب الفرحين، ومرأى من الدكتور (جوبلز) وزير الإعلام النازي من تأليف عدد من المؤلفين ذوي الشهرة العالمية، من أمثال توماس مان وهنريخ مان وأرنولد وستيفن زفايج وايريك ماريا وألبرت اينشتاين وغيرهم، ولم يقتصر الإحراق على عشرات من الكُتاب الألمان فحسب، بل تعداه إلى كتاب أجانب، من أمثال جاك لندن وهيلين كيلر وه.ج.ويلز وفرويد وأندريه جيد وأميل زولا

ومارسيل بروست، ويقول البيان الذي أصدره الطلاب: إن كل كتاب يعمل في تهديم مستقبلنا، أو يضرب بمعاوله جذور ثقافتنا الألمانية وبيتنا الألماني، وقوى شعبنا المحركة، مصيره الإحراق.

أما جوبلز فقد ألقى خطابا على ضوء هذا اللهيب المشتعل قال فيه: في وسع الروح الألمانية أن تعبر عن نفسها من جديد، ولا يقتصر عمل اللهيب في إضاءة الخاتمة النهائية لعهد مضى، وإنما يضيء أيضا حقبة مقبلة.

وهكذا شهدت برلين في العاشر من مايو ١٩٣٣م حادثاً فريداً من نوعه في تاريخ الإنسانية، وهو حريق الثقافة الذي أقيم كأنه احتفال وطني برعاية الدولة النازية وإشرافها، وكان هذا الحريق رمزاً لكراهية العقل الحر والرفض الكامل للتفكير المستقل، والدعوة المتعصبة للتخلص من الاختيار الحر، الذي تقوم عليه الثقافة الحقيقية العميقة والاستسلام للفكرة الواحدة والرأي الواحد، والتبعية الكاملة لكل ما يدور في رأس هتلر زعيم النازية من آراء وأفكار.)

مذبحة الشوقيات

لم يكن (عبد الناصر) وهو النموذج الفريد للطاغية العربي، الذي يرى نفسه الزعيم المخلص والملهم العبقري، وما هو إلا زعيم فاشل مهزوم، جلب لأمته الخزي، وكلل جبهتها بعار الهزيمة في ٦٧، لقد كان هذا الطاغية من أعدى أعداء الثقافة، وأشد أعداء المفكرين الذين يعارضونه ويرون غير رأيه، فلم يكن منه إلا أن أعمل فيهم القتل والشنق، لقد كان الرجل لا يرى إلا نفسه، ولا يرى إلا كلمته التي جعلها سيفًا مسلطًا على الجميع، وكل من عارضه أو نصحه أو ناقشه أخفاه كما يقولون: وراء الشمس.. ناهيك عن جنايته على الفكر والثقافة، أو بمعنى أدق خيانته لأمانة التراث والتاريخ.

ينقل الدكتور (مصطفى محمود) عن الدكتور مصطفى الرفاعي أستاذ جراحة المسالك البولية بطب الاسكندرية وهو ذواقة للأدب ومن المغرمين بالشاعر الكبير (أحمد شوقي) قوله: إنه من المغرمين بشراء كتب شوقي أمير الشعراء، وقد لاحظ مصادفة أن الديوان الذي أصدرته المكتبة التجارية عام ١٩٧٠م لشوقي جاء أقل من ٥٠ صفحة من الطبعة الأصلية، التي أصدرتها مطبعة الاستقامة في القاهرة سنة ١٩٥٠م.

وبتقليب الصفحات في فضول، اكتشف أن هناك سبع قصائد قد حُذفت بكاملها، وأن هناك ١٥ قصيدة أخرى شطب منها الناشر ٢٤٤ بيتاً، وبقراءة الأبيات والقصائد التي فيها ذكر للأسرة المالكة، أو ذكر للدستور أو ذكر لحرية الصحافة.. ومعنى ذلك أن الحذف كان بيد الرقابة.. وأن التعليمات أيامها (وهي أيام عبد الناصر) كانت ألا يأتي للأسرة المالكة ولا للدستور ولا لحرية الصحافة، والمصيبة كما ينقل الدكتور: أنه يوجد بالأسواق في هذه الآونة طبعتان حديثتان للشوقيات، واحدة أصدرتها مكتبة مصر، والثانية أصدرتها مكتبة التربية ببيروت، وكلتاهما صورة طبق الأصل من الطبعة المشوهة التي حذف منها أكثر من ٦٠٠ بيت.. ومعنى هذا أن تراث هذا الشاعر العظيم، فقد وتعرض للحذف والتشويه.! فهناك قصائد كاملة اختفت مثل قصيدة محمد علي الكبير.. والخديوي اسماعيل.. والجامعة.. والسلطان حسين كامل ..ودمعة وابتسامة.. وعلى يد الله.. وتهنئة (بمناسبة الكوليرا).. أما القصائد التي حذف منها ٢٤٤ بيتًا فهي كثيرة منها مشروع ٢٨ فبراير ..إلى عرفات الله.. والأزهر.. وفي سبيل الهلال ..وعيد الفداء ..ونكبة بيروت ..وفي وداع فاروق.. والعلم والتعليم ..ويا شباب الديار.. وشهيد الحق وغيرها.

ويعقب الدكتور بقوله: هل هناك مهانة أو تخلف مثل هذا؟!

وهذا لا شك عمل مريض، وجناية قذرة على الثقافة والحرية والتراث الثمين، لشاعر في قامة وقيمة شوقي، لقد بدد ناصر بعفاناته تراث الرجل حتى يرضي علله ويطفئ أحقاده وعقده النفسية، وهي الثروة التي لم تكن ملكه ولا ملكًا لحزبه الخبيث، وإنما ملكاً لمصر وتاريخها وحضارتها، والقصائد التي تتغنى بالحرية وتحترم الدستور، إنما هي في ضمير الزمان تقدير لمصر وإقرار بأنها أمة تحترم القيم..

وكما عبر الدكتور مصطفى محمود بأنها : (صروح مجد لتاريخنا)..

إن الأمم من حولنا تقدس تاريخها وتحترم آثارها ..وتعظم قادتها الغابرين أما نحن فلدينا القدرة في محو كل ما هو مقدس، من أجل إرواء غبائنا وإشباع أمراضنا التي تجذرت في نفوسنا حتى أذهبت من حياتنا كل قيمة نعتز بها وكل تراث نتفاخر به..

تأمل معي هذا الخبر الذي طالعتنا به صحيفة الشرق الأوسط في أواخر شهر أبريل ٢٠١٦م

إعلان تراث لوركا إرثًا وطنيًا إسبانيًا، فدريكو غارثيا لوركا

أعلنت الحكومة المحلية لإقليم مدريد، بطلب من وزارة الثقافة الإسبانية، اعتبار تراث الأديب الإسباني فدريكو غارثيا لوركا (١٨٨٩ - ١٩٣٦) من تراث إسبانيا الوطني، ومنعت بيع أي قطعة منه إلى خارج إسبانيا.

وجاء في تصريح لخوسيه ماريا لاساجي، سكرتير الدولة للثقافة، لصحيفة الـ«بابيس» الإسبانية أن «فدريكو غارثيا لوركا، وبونويل، ودالي، وبيكاسو من الأسماء الرئيسية للثقافة الإسبانية في القرن العشرين. ولا يمكن لنا التفريط بتراثه، ولا أن نعرضه للخطر». وقالت رئيسة الحكومة المحلية لإقليم مدريد، كريستينا ثيفوينتيس: «بهذا القرار نكون قد حققنا أقصى حد ممكن لحماية تراث لوركا».

وقد أعرب غارثيا مونتيرو، القائم بأعمال رئيس بلدية غرناطة، جنوب إسبانيا، عن ارتياحه للقرار، وقال إنه «سعيد وراض عن القرار»، ويأمل بجمع كل تراث لوركا في مكان واحد، وهو «مركز لوركا» في غرناطة. وطالب فرانثيسكو بوينتيدورا، عضو المجلس البلدي في غرناطة، بأن تقوم وزارة الثقافة بجمع تراث لوركا كله في غرناطة - المدينة التي ولد فيها، وفيها قتل.

وتحتفظ جمعية غارثيا لوركا، في دار إقامة الطلاب في مدريد، بنحو ٤٦ رسما أصليا للشاعر لوركا، و٢٣٤٣ قصاصة بخطه، و٣٠٠ قطعة من ممتلكاته، وأكثر من أربعة آلاف من كتبه، فضلا عن مئات الوثائق والصور المتعلقة به، و١٢٥ كتابا مهدى إليه من قبل مؤلفيها، ورسائله المتبادلة، ومنها ١٦٧ رسالة كتبها إلى عائلته وأصدقائه، و٢٠٠٠ رسالة موجه إليه.

ومن ضمن ممتلكاته لوحات ورسوم للفنان سلفادور دالي، ورامون غويا، ورافائيل باراداس، وخوسيه كاباجيرو، وبينخامين بالنثيا، وكذلك أخبار ومقالات وكتب تحدثت عن لوركا بالإسبانية، وبلغات أخرى، وهي في مجموعها تصل إلى ١٩ ألف وثيقة.

ومعلوم أن فدريكو غارثيا لوركا، المولود في بلدة فوينتي باكيرو التابعة لمحافظة غرناطة، عام ١٨٩٨، يعتبر أبرز كتاب إسبانيا، وأشهرهم عالميًا.

فماذا فعلنا نحن برموزنا الثقافية؟

سقطة أمير الشعراء

حينما تريد أن تكون زعيما سياسيًا أو مصلحًا اجتماعيا، فإياك أن تقدم على أمر كهذا دون أن يكون لك آلاتك الإعلامية، وحزبك وتنظيمك، الذي يكون سندًا وحاميًا لك من عدوان الخصوم والأنداد.

نعم فهذا ما حدث للزعيم أحمد عرابي، الذي شُوه تاريخه وشخصه على أبشع ما يكون، بفعل أعدائه من الخديوي والإنجليز، الذين ألصقوا به كل منقصة، ولم يرحموه، وقد صار وحيدًا أعزلا لا يجد من يدافع عنه، أو يرد ما ضره، فلا حزب ينصره ولا جماعة تزود عنه.

انظر إليه بتأمل لترى الفرق الكبير بينه وبين الزعيمين مصطفى كامل وسعد زغلول، وهما يظلان إلى اليوم من رموز البطولة والوطنية والزعامة والحرية، بل إلى اليوم مازالت تُردد أقوالهما، لتكون شعارا لكل مواطن يعتز بمصريته.

لكن هل تعلم تلك السقطة والزلة التي قام بها شوقي أمير الشعراء، الذي كان ضمن هذه المنظومة التي تجنت على الزعيم الكبير، وشوهت حقيقة بطل من أبطال مصر المخلصين؟ شوقي صاحب القصائد الدينية والوطنية المبهرة، هو نفسه من كان أو جعل نفسه، مطية حاكم ظالم، وأداة في يد طاغية، يلوث بها سمعة خصومه الأبرياء.

ثلاث قصائد كاملة، يمطر شوقي بأبياتها هذا الزعيم الكبير، ويسئ إليه، ويشوه سمعته، فكيف يغفر التاريخ لشوقي هذا الظلم وهذا الزيف، وعدوانه على الحقيقة؟

قصائد ثلاث تضج بالهزء والسخرية والهجو المر، والافتراء الكاذب، والجهالة والطيش والغرور والأثرة، صاغها أمير الشعراء ضد رجل أعزل برئ، بإيعاز من حاكم سفيه طاغية عميل للإنجليز أعداء مصر، ومغتصبو أرضها الباسلة.

وظلت هذه القصائد التي شوهت حقيقة عرابي، ماثلة في الأذهان، كتلك القصائد التي صاغها المتنبي في كافور الإخشيد، الذي كان من أعدل وأنصف من حكم مصر.

ولكنه زيف الشعراء، الذي كشف لنا حقيقة أخرى من حياة شوقي، وجانبا خفيًا من حياته، حينما كان شاعرًا للقصر وناطقا باسمه، وعبدًا لأربابه.

لم يكن شوقي وحده من سار في درب الافتراء، وإنما كانت كل الصحف ووسائل الاعلام وقتها، قد أولغت وأوغلت في تشويه الزعيم، متغاضين عن الخيانة الفاجرة، التي تعرض لها الرجل الباسل المغوار، فكانت خيانته خيانة لمصر الخبيبة، وشهداء جيشها المغوار.

نشرت القصائد دون توقيع، قبل أن يتضح فيما بعد أنها لأمير الشعراء أحمد شوقى، طرحت سؤالا محيرا وهو: هل كان شوقي يكره عرابي؟

ولكن الحقيقة أن شوقى كان شاعر الأمير، فقام بهجاء الزعيم العائد من المنفى فى ذلك الوقت، تزلفًا إلى الأمير، وعملا بسنة قديمة للشعراء، مؤداها أن يمتدح الشاعر من يرضى عنه أميره، وأن يذم من يغضب عليه ذلك الأمير، دون أن يكون بين الشاعر وبين من يمدح أو يذم أية صلة.

وكتبت جريدة اللواء حينها وهى تعلم أنها كاذبة تقول: "إن اللورد كرومر جاء بنفسه إلى محطة القاهرة لاستقبال عرابى"، وذلك لتُلقى روع الناس، أن عرابى من صنائع الإنجليز، ونشر شوقى قصيدة قال فى مطلعها:

صغار فى الذهاب وفى الإياب* أهذا كل شأنك يا عرابى؟

لقد حاول الكاتب رجاء النقاش في بعض مقالاته، أن يدافع عن شوقي، ويجد له بعض العذر، وذكر كثيرا من مواقفه الوطنية، ولكن وضعه الرسمى، كموظف كبير فى بلاط الخديوى توفيق وابنه الخديوى عباس حلمى الثانى، هو ما دفعه أن يكتب قصائده الثلاث ضد عرابى، ولا أعرف هل يعد هذا عذرا أم خيبة وانتكاسة، حينما يتعلق الأمر بمصر وزعيم قاد جيوشها يوما لحرب المحتلين الغزاه.

يقسم لي أحد أصدقائي من محافظة الاسماعيلية، وكانت الحكومة، قد اضطرت لحفر وإخلاء المنطقة التي جرت عليها معركة التل الكبير، يقسم لى: أن الحفارات كانت تخرج جثث الشهداء من جنود عرابي بعد أكثر من مائتي عام، وكأنهم قتلوا بالأمس، بنفس الذي العسكري الذي كانوا يرتدونه في

تلك الأيام، حتى رؤوسهم كانت مكللة بالطرابيش الحمراء، حلية ذلك العهد، لقد كان هؤلاء جنود عرابي الذي شوهه شوقي أمير الشعراء .

وعلى قدر ما تجد دومًا من ينافق ويتملق ويسير في ركاب الطغاة والمحتلين، كان هناك على الجانب الآخر من يصدح بالحق، ويعلن الصدق، ويكشف زيف المنافقين الكاذبين، وإذا كان شوقي قد رضي لنفسه هذا السقوط الأخلاقي في بعض أشعاره قبل أن يكون سقوطا وطنيا، فقد كان هناك على الجانب الآخر شرفاء وطنيون، تأبى كرامتهم أن يكون شعرهم مطية للكذب والزيف وخدمة الإنجليز وعملائهم.

إنه الشاعر الوطني الغيور الأستاذ فخري أبو السعود، الذي كتب كتابًا ونظم قصيدة عصماء، حكى فيها ذكرياته مع المعركة الوطنية، وفند فيها كل الشبهات والزيوف التي حاكتها أجهزة الاحتلال وأذنابهم، واستكملوا بهذا الكذب مسيرة الخيانة التي لم يكن عرابي وحده ضحية لها، وإنما كانت مصر كلها ضحية للخيانة العظمى.

ولم أرى يوم التل عارا وسبة ولم أراه إلا أغر ممجدا**

أنخجل أن قمنا نزود عن الحمى ويسحب أذيال الفخار من اعتدى**

يرى قوم أن عرابي قد تخلى في أخرات حياته عن سمات القيادة وما تلقيه على كاهل صاحبها من التزامات القائد والزعيم، ويرى بعض المؤرخين أنه كانت به صفات الغرور والغفلة، مهدت لهزيمة ساحقة نتيجة الخيانة وعدم الحنكة التي تتطلبها شخصية الزعيم، وأنه صار في أيامه الأخيرة يطلب ود الانجليز ليحسنوا معاشه ويردوا عليه أملاكه، ولعل هذا ما ساهم في تشويه صورته بالكامل، ومهدت للقضاء على سمعته وذكرياته الوطنية كزعيم وقائد، بل لعلها تكون تبريرا لقصائد شوقي الذي يظل رغم ما رصدنا من زلته أميرا للشعراء، وتراثا فخما تعتز به العربية وآدابها.

العربية ساحرة الشعوب

حينما يدهم الاستعمار أمة من الأمم، فإن أول ما يسعى إليه، أن يوجه سلاحه إلى أجساد أبنائها ليخيفهم، ثم يوجه لغته إلى ألسنتهم، ليمحو وجودهم ويلغي انتماءهم.

نعم فإن الانتصار الحقيقي على الشعوب لا يقوم بالقوة العسكرية وحدها، بقدر ما يكون بمسخ الهوية، والتي تكون اللغة أقوى عواملها.

غصة كبيرة ونحن نرى بعض بلاد المغرب العربي فقدت لغتها العربية وصارت لأهلها لغة ممزوجة بين العربية التي تغلبها الفرنسية، ولولا نضال المجاهدين منهم، لضاعت العربية برمتها وما بقي منها حرف واحد.

لقد عمد العرب إلى نشر لغتهم، وترويض الشعوب عليها، ليس بغرض العداء للهوية وطمسها، ولكن بغرض الهداية والتعريف برسالة الإسلام، والتي كانت اللغة العربية تسهل عرضه وفهمه وتوضيح فكرته وحقيقته السامية.. كان الاستعمار يؤمن أن كل حرف يمحوه من اللغة العربية، فإنه بذلك يضمن بقاءه وقوته في بلادنا عشرات السنين، وكلما قرب أجيالنا من لغته، فإنه بذلك يوجد جيلاً مسلوب الصلة بينه وبين حضارته وتاريخه، منتميًا متطلعًا إلى حضارة المستعمرين.

يقول مصطفى صادق الرافعي في وحي القلم: "ما ذلَّت لغة شعب إلا ذَلَّ، ولا انحطت إلا كان أمره في ذَهاب وإدبار، ومن هذا يفرض الأجنبي المستعمِر لغته فرضًا على الأمة المستعمَرة، ويركبهم بها، ويشعرهم عظمته فيها، ويستلحقهم من ناحيتها، فيحكم عليهم أحكامًا ثلاثةً في عمل واحد؛ أما الأول: فحبس لغتهم في لغته سجنًا مؤبدًا، وأما الثاني: فالحكم على ماضيهم بالقتل محوًا ونسيانًا، وأما الثالث: فتقييد مستقبلهم في الأغلال التي يصنعها، فأمرهم من بعدها لأمره تَبَع"

وقال الحاكم الفرنسي في الجزائر بمناسبة مرور مائة عام على احتلالها:"يجب أن نُزيل القرآن العربي من وجودهم... ونقتلع اللسان العربي من ألسنتهم؛ حتى ننتصر عليهم"

ورغم هذه المخططات الاستعمارية، ونجاحهم في القضاء على لغات الشعوب، إلا أن العربية صمدت كالصخر العنيد، بما تتمتع به من مقومات البقاء الذاتية وعناصر الدفاع الطبيعية، والقناعة الكبيرة في نفوس أصحابها بقيمتها وجمالها وروعتها، وهو الشأن الذي أدركه بعض من المستعمرين وصرحوا به أمام فشلهم في القضاء عليها.!

يقول ريتشارد كريتفيل:"إنه لا يعقل أن تحل اللغة الفرنسية أو الإنجليزية، محل اللغة العربية، وإن شعبًا له آداب غنية منوعة، كالآداب العربية، ولغة مرنة، ذات مادة لا تكاد تفنى - لا يخون ماضيه، ولا ينبذ إرثًا ورثه بعد قرون طويلة عن آبائه وأجداده"

وقال الفرنسي جاك بيرك: "إن أقوى القُوى التي قاومت الاستعمار الفرنسي في المغرب هي اللغة العربية، بل اللغة العربية الكلاسيكية الفصحى بالذات، فهي التي حالت دون ذوبان المغرب في فرنسا، إن الكلاسيكية العربية، هي التي بلورت الأصالة الجزائرية، وقد كانت هذه الكلاسيكية العربية عاملاً قويًّا في بقاء الشعوب العربية"

وهو ما يدفعنا للقول بأن سحر العربية وجمالها، يفوق جمال أي لغة، وأن العربية لو نزلت الساعة، واستوعبها مجتمع غريب عنها فإنه ينجر إليها طواعية، مهملا لغته وحروفه التي ينطق بها، وهو ما حدث فعلا في الأندلس قديمًا يقول المؤرخ رَينْهَارْت دُوزِي: "هجر أهل إسبانيا اللغة اللاتينية واشتغلوا بالعربية وآدابها، وكانوا لا يكتبون بغيرها، حتى إن أحد العلماء المشهورين، شكا من ذلك وقال: إننا نحب قراءة الشعر العربي لنتعلم لغة رشيقة، وعبارة بليغة، ولايكاد يوجد عندنا من يقرأ الكتاب المقدس باللغة اللاتينية، وكل شبابنا الأذكياء لا يعرفون غير لغة العرب وآدابها، لأنهم يقرؤون الكتب العربية ويدرسونها بهمة عظيمة، ويدعوهم كثرة اطلاعهم على هذه الكتب، إلى الإعجاب بآداب اللغة العربية، فإذا حدثتهم عن كتاب من الكتب اللاتينية سخروا منها وقالوا: إنها لا تستحق عناية قارئ أومستفيد، ومن أجل ذلك نسي المسيحيون لغتهم، فلا تكاد تجد في الألف منا واحدًا يمكنه أن يكتب رسالة باللاتينية، أما إذا أرادوا أن يكتبوا باللغة العربية، فإن كثيرًا منهم يكتبون بعبارات بليغة، وأسلوب منمق، وقد يفوقون العرب أنفسهم في ذلك، حتى في الشعر ونظم القوافي.

ويذكر أن قسيسًا من أهل إشبيلية قام بترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة العربية لتلاميذه، فغضب منه زميل له واتهمه بالعمل لنشر اللغة العربية، ودافع القسيس عن نفسه، بأن هذه هي الوسيلة الوحيدة لتعليم التلاميذ.!

حتى إن أدب أهل إسبانيا مأخوذ من الأدب العربي ومتأثر به كما يقول المؤرخ المستشرق كوندي.

وهكذا تفرض العربية نفسها على الشعوب والمجتمعات، بما تتمتع به من مقومات السحر والجمال وروعة التعبير والبيان، بلا سلاح يفرضها، أو مستعمر يجبرهم عليها، وهي مقومات لا تجدها في لغة من اللغات.

إلا كتب المنافقين

الكتب كلها جميلة، لكن قليلا منها ذلك الكتاب الذي يخطف اللب، ويعانق النفس، ويأسر الروح.

يمكن أن أستفيد من كتاب ما، لكنه لا يأسرني، ولا يستطيع أن يرسم البسمة على وجهي كلما أقلبت عليه، ومثل هذه الكتب التي تفعل بي ذلك، عمرها قصير لأنني لا أتركها حتى أنتهي منها من فوري.

يمكن أن تقول: كتاب جميل، لكن من الصعب أن تقول: قلم جميل، لأن أصحاب الأقلام الجميلة، لايدوم جمالها في كثير من الأحيان.

إن الشعور لدى من يحبون القراءة بالعثور على كتاب جميل، يماثل تماما شعور ذلك الفقير الذي عثر على كنز ثمين، شعور ذلك العقيم التي رزقت بولد، شعور ذلك المكتئب الذي جد في حياته ما يجلب له السعادة والهناء.. بل لا أستحي إن قلت: إنه شعور ذلك الذي تزوج بامرأة جميلة ملأت عليه حياته وأيامه، بعد أن ملأت عينه وسحرتها، فهو بجوارها ليل نهار لا يفارقها ولا يصرف علينه عنها.

وهذا الجمال ليس من المحتم أن يشعر به غيرك، لأن الأذواق تتحكم في هذا الميزان وتوجهه، فما هو جميل لديك، فاتر في نظر غيرك، قد يحدث هذا عند حتى من يجمعهم هوى واحد وهوية واحدة.

فربما أنت تعجبك أشياء وتركز على لمسات لا يصوب قرينك أهدافه إليها، لأنه تبهره لمسات أخرى.

وكم دهشت يومًا من كتاب قيم، كان مذاقه لذيذا، واسمحوا لي أن أعبر بلفظ المذاق، لأن ما أفدته منه قد غذى روحي، ونمى نفسي نحو المعالي، فإذا بقارئ يدور بيني وبينه حوار عن ذات الكتاب، ليفاجئني بما أثار عجبي ودهشي، من أنه وجده كتابًا مملا لا فائدة فيه ولا غنيمة.

لم أستطع وقتها أن أتهمه بالجهل، لأني أدركت مسبقًا مشكلة الأذواق واختلاف معينها ونظرتها وحكمها على الأشياء.

ومن هنا كان من الخطأ جدًا أن تعطي كتابًا لأحدهم، قبل أن تعرف طبيعة هواه ومزاجه، وهو نفس الحال كلما سألني سائل:ماذا أقرأ؟ لأجيبه بأن الذوق يختلف بين الأشخاص، فانظر أنت لنفسك أولا ماذا وفي أي الميادين تُحب أن تقرأ، وبعدها ستجد ضالتك بكل سهولة، بل ستجد نفسك وحدك تجيب على هذا السؤال المعضل.

واعلم أن حب الكتب والحفاوة بها، قد يخرج من موضوعها لظاهرها، ويخرج من مادتها لهيكلها، فإن واحدًا من الناس أو القراء، يسحرهم ذلك الكتاب القديم الذي بليت أوراقه واصفرت صفحاته، وكلما أمعن في البلى واشتد في الاصفرار، كلما زاد غرامه في قلبي ووجداني.

ثم هل تصدقني لو قلت لك: إن كتابًا قيما يزهو به العالم وتتحاكى به العوالم، وتتواصى به الأجيال، وتمتلكه كل المكتبات، يمكن له أن يسقط من نظري، ويهون في عيني، وتستقله قريحتي، لو علمت أن صاحبه نافق أو ماطل أو ظلم أو تخابث.

ساعتها تكون تلك الأوراق التي يجمعها الزبالون من الشوارع أكثر قيمة عندي منه.

يمكن أن أحترم كتابًا لكافر أو ملحد، أو كل مخالف لي في الرأي، لكنني لا أقدر أن أجبر نفسي على احترام كتاب لمنافق.

قديمًا قلت: إن الكتب كالأشخاص تمامًا، منها ما تألفه وتحبه، ومنها ما تستثقله وتمجه، ومنهم من تراه فلا تحبه، وترى نفسك لا تألفه ولا تنسجم معه، ثم بعد طول معاشرة أجبرتك عليها الظروف، تجد ما كان يستقر في نفسك من نفور له قد زال وتبدد وتغير للنقيض، فصرت تحبه بعد بغض، وتألفه بعد كره، وتستسيغه بعد استثقال.. وهو ما يطلق عليه العامة في لغتهم: ما محبة إلا بعد عداوة.

نعم بعض الكتب التي تقع بين يدي أشعر معها بهذا الشعور، فاستثقل ظلها، وأغالب نفسي على القراءة فيها، ثم يتبين لي بعد طول صبر أن ما كان بيني وبينها من جفوة، قد انقلب بقدرة قادر، أو

بفعل ساحر إلى حب وإلف، لأجد فيها المتعة والفائدة، بعد أن كنت أُكره عليها نفسي كمن يتجرع دواء مرًا لا يطيقه، وفيه شفاءه وصحته.

الكتاب الذي باع نسخة واحدة

منذ فترة شكت إلى باحثة مجتهدة، بأنها ألفت كتابا في التاريخ، لكن للأسف، لم يبع منه الناشر إلا نسخة واحدة، مما جعلها تصاب باليأس العارم، وتصرف غايتها عن هذا الاتجاه من ألوان الثقافة والمعرفة، وتُعرض عن مواصلة طريقها في البحث والتأليف فيه.

وهذه الحادثة، أعدها كارثة كبرى لا ذنب للباحثة فيها، ولا ذنب الناشر كذلك، وإنما يتحمل عبأها هذا الجيل الذي قلب موازين الثقافة والأدب، وجعل غايته وجنته وغرامه، في قراءة الروايات والقصص واقتنائها، بعيدًا عن معين الثقافة الأصيلة، الممثلة في تراثنا وآدابنا وتاريخنا.

الباحثة القديرة ألفت كتابا تحت عنوان (النذالة.. قصص عبر التاريخ) جمعت فيها من عيون التراث والتاريخ أخبارًا غزيرة، ومواقف متعددة، شاهدة بثراء تراثنا الذي يمد الباحث في كل ميدان، وفي كل حديث، وكل اتجاه.

ولأن خلق النذالة خلق غير مشرف، ويلتاك به كثير من البشر، وأمر واقع ومشهود في الحياه، تجسد لي هذا الكتاب وأنا أقرأه، أنني أقرأ كتاب البخلاء للجاحظ، أو كتاب الأذكياء للإمام ابن الجوزي، لقد شرقت الباحثة وغربت في جنات الأرض، وأعماق التاريخ، ودهاليز الأيام، لتجمع لنا سفرًا طريفا قيما وثريًا مفيدًا مطعما بالعبر والفوائد والعظات والمعارف والعالم.

وكل قناعتي اليوم أن أي مثقف يُعرض عن كتاب كهذا، هو مثقف ثقافة مغشوشة هشة، لا جذور لها ولا أصل.

كان أشد ما يرتاعني تلك الخيبة الكبيرة والشعور المحبط، الذي انتاب الباحثة في عملها، وهذا الإحساس الوبيل الذي تسرب إلى ذاتها، وأوهمها أنها لم تقدم شيئا ذا قيمة، ولعمري فكتابها هذا من أعظم ما قُدم، وأروع ما جَمع.

الباحثة القديرة يمكن لي أن أقول: إنها أفادت البحث العلمي والأدب والتاريخ، وتركت بصمة قوية، بسفر مبهر لا يستحق فقط أن يُقرأ، وإنما يستحق الجوائز العديدة، التي تكرمه وترفعة لمكانة

تليق به، ولو أنني أملك مقدرات الثقافة في مصر، لأمرت بطبع هذا الكتاب وتوزيعه على الشباب والباحثين ليستفيدوا منه، وتزداد معارفهم وعلومهم ونوادرهم.

الباحثة تركت بصمة في دنيا التاريخ لم تُسبق لها، وصنفت كتابا متعوبا عليه، وأجعلها به في مصاف الباحثين المبدعين، الذين استلهموا واستخلصوا من بطون الكتب، وأعماق التاريخ فكرة مبهرة، تدعم مسيرة الوعي والمعرفة الأصيلة، التي وللأسف كما قلت: ينأى عنها شباب هذا الجيل، الذي يحتاج لمثل هذا الكتاب الفريد وغيره، ليرده إلى معين الثقافة الأصيلة الرصينة.

وكلي أمل عارم أن تواصل الباحثة جهودها، وتطرح عنها كل بواعث اليأس، فتجد وتجتهد وتؤلف على ذات المسار كتبا أخرى، تعزز ثقافتنا التي لا شك لها جمهورها الواعي الرشيد، الذي يدعمها ويقرأها ويؤمن بقيمتها.

علينا أن نبحث عن سبيل لإيصال هذا الصوت لطالبيه، وليس معنى أن الكتاب قد بِيعت منه نسخة واحدة، أنه فاشل أو ضعيف أو لا يستحق، فلربما رمي به في الوجهة الخطأ التي لم تكتشفه وتقدره بحقه، أو أنه لم يسوق في المكان اللائق به.

يكفيك أن تنظر بدقة إلى حجم هذه المراجع التي استقت منها الباحثة روافد كتابها، لتعلم حجم الجهد الكبير الذي بُذل فيه، وأنه شئ متعوب عليه، وأنها غاصت وتعمقت، وسهرت وبحثت حتى تقدم لنا هذا الوليد الجديد.

ونحن من خلال هذه السفر وعبر هذه السطور، ندعم الكاتبة ونشد على يديها، بل ونرجو باسم الثقافة الأصيلة، أن تواصل السير والجهد والإبداع، ولا تلتفت لأي صورة محبطة، يمكن أن تصرف همتها، وتستقبل بقيمة عملها، فيوما ما ستنال ما تستحقه، وينال كتابها مكانته اللائقة.

كما أخشى أن تظن أننا نطلق هذا الكلمات قصدا إلى تحفيزها وتشجيعها لتقاوم اليأس، فإعجابنا المفرط بكتابها هو الذي فرض نفسه، وما قدمته فيه من عطاء، هو من جعلنا اليوم نكتب عنه، ونشيد به إلى الأمة، ونؤكد على قيمته.

نعم أخطأت

كنت منذ فترة قد كتبت مقالا فكريا واستشهدت فيه ببعض الوقائع، وذكرت خطأ أو سهوا بعض المعلومات التي لم تكن عن جهل وقلة معرفة، لكن بعض الناس استحلى وازدان له، أن يضخم ما أخطأت فيه ليكون مهولا كالجبل، بل راح يؤكد في نشوة مفرطة أنني لم أسهو ولكنني أخطأت عن جهل وقلة معرفة.

وسارع بعضهم ليقول لي: احذف المقال وانشره مرة أخرى، ولكني قلت لهم: لست أنا من يهرب من أغلاطه، وليس الخطأ مما يشين نفسي وقدري، لأنني لا أكتب لمجد شخصي ومدح ذاتي، وإنما أكتب لغاية ورسالة، همي منها أن يستيقظ الوعي ويتثقف العقل ويتسلح الوجدان بالإدراك والمعرفة التي تنير الطريق في الحياة.

أما أن أخطئ، فهذا ليس مستحيلا ولا عيبًا لأنني بشر، يصيب ويخطئ، ولا يوجد في نفسي الكبيرة أي شعور بالحرج والاستحياء من أي خطأ وارد وممكن، كما يتصور قليلي العقل، وصغار النفوس.

بعض الناس خاصة من يعادونك، يتحينون الفرصة ليذبحوك حينما تخطئ، ولكنك تفسد عليهم مسار فرحهم ونشوتهم حينما تعلن أنك أخطأت، وأنك لم تكن على صواب، ليرتدوا خاسئين مدحورين.

ولعل هذا الأدب والتواضع والصدق مع النفس، هو ما تعلمناه من أدبائنا الكبار، وعلمائنا الأجلاء، الذين كانوا يعلنون خطأهم العلمي والمعرفي على الناس، دون أدني حرج أو خجل أو كسوف، لأن العلم بحره كبير، وليس من العيب أن تخطيء أو يصدر منك غلط في قصة أو فكرة أو معلومة.

يروي لنا الدكتور محمد رجب البيومي أنه التقى بالأديب الكبير الشيخ علي الطنطاوي حينما زار مصر، وسأله عن طبيعة كتابه عن الشاعر بشار بن برد، لأن البيومي كان وقتها يعد بحثا عن نفس الشاعر، ويريد أن يستنير برأي الطنطاوي، ولكن الأستاذ علي فاجأه بما لم يكن في باله حينما قال له:

"إياك أن تعتمد على هذا الكتاب في شيء، فكله أخطاء؛ لأني نقلت روايات ثبت بطلانها، ومدحت أبيات لا تستحق المديح، وقد أوصيت من لديه نسخة في دمشق أن يحرقها حرقا، أو تريد أنت أن ترجع إليه في مصر؟!!"

تعجب البيومي كثيرًا مما سمع لأن لهجة الأستاذ علي، خيلت له أنه يتحدث عن كتاب ألفه أكبر أعدائه.! وقال في نفسه: إنه حديث بين اثنين فقط وسينقضي أثره.

ولكن لم يمر زمن غير يسير، حتى وقعت الطبعة الأخيرة من كتاب الشيخ علي الطنطاوي عن سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ بين يدي الدكتور البيومي، فهم ليقرأ مقدمته فإذا الشيخ الطنطاوي يقول فيها عن الطبعة الأولى من هذا الكتاب: "ولما رجعت إليه الآن وجدت فيه عيوبًا لا يجوز معها أن يعاد طبعه، ومنها أن فيه أخبارا باطلة لا أصل لها، كقصة البطريق الثالثة والعشرين، وفيه أخبار ضعيفة السند، وأخبار مكررة معادة، وألفاظ تنبو عن أذواق القراء وأفهامهم من غريب اللفظ، أو معقد الأسلوب، ووجدت فيه تطويلا لا داعي له، واستطرادًا يدعو إلى الإملال، ووجدت تعليقاتي عليه، تعليقات الشباب، فلم أرتض أكثرها، فحذفت الباطل منها والموضوع، ثم جئت إلى الأخبار فهذبتها، وطرحت من الكتاب ما هو تطويل، وليس من صميم الموضوع، ومن آثر أن ينظر فيه على ما فيه من العيوب التي نجد من الأمانة الإشارة إليها، والتحذير منها استطاع أن يعود إليه."

وهنا وبعد ما قرأ البيومي هذا الكلام قال: ما هذه القسوة الدقيقة القاطعة! كان في مقدرة الأستاذ الطنطاوي أن يقول: إن هذه الطبعة خلصت من أخطاء وقعت في الطبعة السابقة، ويكفي كل الكفاية للإفصاح عما يريد، ولكنه قاض عادل ، وقد رأى من الأمانة أن يعلن كل ما في نفسه في وضوح سافر ، وقد زاده هذا رفعة في نظر القارئ.

أقول: والرجل حقيقةً في هذا الموقف يصيبنا بالعجب الكبير، ففي الوقت الذي يحاول فيه الإنسان وخاصة المثقفين، أن يتواروا من أي خطأ علمي، حتى لا يجدون من يشمت بهم ويعيبهم، نرى الأستاذ هنا يسرف سرفا عظيما في نقد نفسه واللوم على الطبعة الأولى من كتابه، وتعديد ما فيه من صنوف الأخطاء الشنيعة الكبيرة.

ويبقى السؤال: هل أثرت هذه الأخطاء ووجودها في مكانة الطنطاوي وصغرت من مقامه؟ أبدًا أبدًا فما زال هو الأديب اللامع والمتحدث اللبق، والعالم الجليل، والكاتب النحرير، صاحب المؤلفات العديدة النافعة المبهرة.

وعلى هذا المنوال تعلمت من هذه السيرة هذا الدرس القيم الذي ينطلق ابتداء من ضميرك وشعورك بأن العلم والثقافة أمانة قبل أن تكون تباهيا وفخرا بين الناس.

أخطأت نعم أخطأت، وما العيب والعار في هذا أيها الهائجون، الذين تظنون أن الخطأ والعيب شهادة يقدمها الكاتب بسقوطه ونهايته، ولكنها في الحقيقة خطوة تندفع به إلى الأمام ولكنكم لا تفقهون.

لعلنا نذكر ذلك المقطع المرئي الشهير للكاتب ابراهيم عيسى، حينما اتصل به أستاذ جامعي متخصص في التاريخ، وصحح له اسم كتاب أُسد الغابة بضم الهمزة، بينما كان ينطقها عيسى أسد الغابة بفتح الهمزة لتكون أسدًا واحدًا، إن عيسى لم يتحمل النقد ولم يعترف بالخطأ، وأخذ يزعق ويتعصب ويصيح ويجادل، حتى يخرج من هذا الحرج الذي نزل عليه كالصاعقة المدوية، ولو أنه كان يحترم نفسه وقلمه ويتواضع لرسالة، ينذر لها نفسه لاعترف بالخطأ وشكر المصحح على تصحيحه، ولكن ما فعله شأن من يعظمون أنفسهم ويعيشون لذواتهم.

القهوة شعار المثقفين!

للأسف صارت القهاوي في مصر، أو بتعبير الكثيرين من أهلها لا يجلس عليها إلا الفارغون و المنحرفون.!

وهكذا وبنفس الموقف صُورت لنا القهاوي في صغرنا، وجاء انطباعنا عنها منذ نشأتنا، فكان من يجلس عليها يشعر أنه ارتكب جريمة كبيرة وفعلا جهنميا.! وكنا نخشى عقاب الأبوين، لو علما يوما أن أحدنا جلس على القهوة، ليكون الإنذار بأنه بدأ أول خطوة نحو عالم الانحراف والضياع.

أما القهوة كمشروب، فلم أكن أطيقها أو أحبها، وكنت حينما أتذوقها، أتقرف من هذا الطعم العلقمي المُر، حتى جاء اليوم الذي أحببت فيه عبد الوهاب مطاوع، وقرأت عن إدمانه للقهوة،

ورأيت أهميتها في حياته وحياة غيره من الأدباء والمفكرين، الذين جعلوها من أهم وأبرز طقوسهم كلما حاولوا أن يقرؤوا أو يكتبوا، فهي مصدر إلهامهم ومنع إبداعهم.!

وانطلاقًا من هذا الحب، تحول الأمر لعشق القهوة، وصارت في مخيلتي رمز الأدب والثقافة، كما كنت مبهورًا بمسلسلي الأيام الذي جسده الممثل أحمد ذكي عن طه حسين، ومسلسل العملاق العقاد، الذي جسده الممثل محمود مرسي عن الأستاذ العقاد، وكأنت أبدع وأجمل المشاهد التي تأسر نفسي في المسلسلين، حينما أراهم يجلسون على القهوة في صحبة أترابهم من الأدباء والمفكرين، يتناولون الشعر والنقد والحديث في شؤون الفكر والثقافة، وكنت أقول في نفسي: من لي بمثل هذه الجلسة، التي تتمثل فيها صورة المشايخ والمفكرين والأدباء، وهم يجلسون على القهوة يتحاورون في شئون الثقافة والفكر والأدب، ولو علمت اجتماعهم الآن لذهبت إليهم بلا تردد، حتى أهيم في جمال حلقتهم وأنس حديثهم.

إن أي حديث عن القهوة، أعده وثيق الصلة بعالم الأدب والثقافة، وأي أديب يتحدث عن ارتباطه بالقهوة، إنما هو يتحدث عن جزء أصيل من معالم إبداعه، والطرق المؤدية إلية، تعود (نجيب محفوظ) أن يجلس في مقهى علي بابا، وعلى منضدة تطل على ميدان التحرير، يصل إليها قبل الثامنة صباحًا، ويبقى لأكثر من ساعتين ويطلب فنجانًا واحدًا من القهوة على الريحة، وقد اعتاد أن يشرب كمية قليلة جدًا من هذا الفنجان، ثم يترك معظمة كما هو، ويقضي وقته الباقي في حالة من الصمت والتأمل حتى يحين موعد انصرافه.!

وفي إطار هذا الهوى النفسي، وددت لو كانت هناك قهوة أجلس عليها، وألتقي فيها بمثقفين وأدباء نتناول فيها أمور الثقافة والإبداع، ولكن هيهات هيهات، فهذا ضمن الغايات التي حرمت من تحقيقها.! ولأن القهاوي أصبحت في هذا الزمان، حكرًا على من ذكرنا من أشقياء هذا الزمان.! الأدباء اليوم وكثير من المثقفين والكتاب، جعلوا القهوة شعارًا من شعارات الثقافة والأدب.. تمامًا مثل شعار القلم والدواة، وإذا أراد أحدهم أن يعبر عن سعادته بالقراءة والكتابة، فما عليه إلا أن يعكس حاله في صفحته على الفيس بوك، ويظهر بها كتابًا بجوار كوب من القهوة الدافئة.!

شعراء وأدباء كُثر حاولوا التعبير عما تمثل القهوة في حياتهم، فمحمود درويش تغنى بالقهوة، ونزار أعطاها مساحة وافرة في بعض قصائدة ومما قال: "قد ماتت كل نساء الأرض وأنت بقيتي بفناجني" وكان جمال الغيطاني من أبرز الأدباء الذين شغلتهم القهوة فقد كتب:

(لقد شغلتني القهوة والمقهى، وكتبت دراسة مطولة في السبعينيات عن مقاهي القاهرة، اذ كنت ومازالت من عشاق المقاهي، حتى إنني أبحث في أي بلد أنزلها عن مقهى أستكين إليه وأتردد عليه، حتى لو كانت مدة مكوثي أيامًا معدودات، المقهى بالنسبة لي نافذة، أرقب منها البشر والمدن وأتعرف على ما أجهل، وأخلو إلى نفسي، في طفولتي كنت أهاب المقهى، ولم أكن أتردد عليه إلا بصحبة والدي الذي كان يمضي إلى مقهى الفيشاوي ومقهى لبنان ومقهى افندية وكلها قريبة من ضريح مولانا الحسين سيد الشهداء.)

ومن هذا البلاء صرت اليوم لا أقتنع أني أقرأ أو أكتب، إلا وبجواري فنجانًا القهوة، تأسيا بهذه العادة، التي لا أعرف من أين نبعت فكرة ارتباطها بالثقافة والأدب والفكر والقراءة والكتابة، بل أراني لا أستطيع التحرر من هذا الارتباط مهما حاولت، فالقلم قديما كان يصحب الدواة وحدها ولا يعرف معها غريما، ولكنه اليوم صار يصحب فنجان القهوة، وكما كان القلم قديما لا يكتب إلا بالدواة، صار القلم اليوم عند بعضهم، لا يكتب إلا والقهوة بجواره، أو بتعبير آخر القهوة قبل الورقة.!

آخر شيء أحتار منه، أن الله تعالى أكرمني بصحبة صديقين في سكن الاغتراب مدمنان للقهوة، ولكن الغريب في الموضوع، أنهما من أعدى أعداء الفكر والثقافة والقراءة، حتى كتبي في السكن ينزعجان منها ويتمنيان ذلك اليوم الذي يشاهدانها تحترق فيه، وكلما رأيت قسوتهما على الكتب وبغضهما لها، أدرك كيف أن الجهل مُر، وأنه يجعل من المرء خاويًا من الحكمة والبصيرة والسعادة.!

تجاهل العمالقة

في معرض الكتاب عام ٢٠١٨م وضعوا صورة رمزية لمفكر شيوعي المعتقد، ماركسي التوجه، وهو الكاتب عبد الرحمن الشرقاوي، وفي هذا العام كانت الصورة الرمزية لمعرض الكتاب لمفكرين

بارزين من قادة التنوير والعلمانية وهما سهير القلماوي وثروت عكاشة، وأعتقد في العام المقبل بإذن الله أن تكون الصورة المنتقاة لمفكر ملحد أو كافر أو عدو محارب للتراث والهوية الإسلامية.

بينما جعبة التاريخ مليئة بقمم عظيمة وعمالقة شامخين، صنعوا في ميدان الثقافة صولات وجولات، وتركوا فيها بصمات لا يمحوها الزمن، ولا تنساها الأيام والاجيال.

ولكن.. يبدو أن وزارة الثقافة في مصر لها رأي آخر ونظرة مختلفة، وهي تصر على إهالة التراب وإثارة الغبار على كل قامة وقيمة، نافحت عن الدين ودافعت عن التراث العربي الخالد.

هل تتخيل أن يقوم رجل واحد في هذا الزمان بجهود جمع عظيم من الباحثين والعلماء في مختلف العلوم والفنون؟

لاشك أن هذا لا يحدث كثيرًا، ولو أنه حدث، فإن ذلك فعلا من الأمور التي تثير الاعجاب والانبهار، بل يكاد العقل يجزم أنها من قبيل المعجزات، أو التوفيق الإلهي لهذا الشخص الملهم المِقدام.!

وإذا كان من عجب أمام هذه المعجزة الباهرة، فإن العجب الأكبر أن يوجد مثل هذا الرجل في أمة تتنكر له وتنفي ذكره، وتمحو وجوده، وتلغي تراثه، كل هذا لأنه كان أصولي الفكر، حاميا للتراث، دَيّن الانتماء.

ولو أنه كان ملحدا أو علمانيا أو شيوعيا، وقام بعشر ما قام به هذا الرجل الفذ، لهللت له الدنيا، ودوت بذكره الركبان، وإذا كانت ووزارة الثقافة تتعمد ذلك، وهي تغتال تاريخ وأثر وذكر هؤلاء العباقرة العظام، فإن الوزر الأكبر نتحمله نحن شباب الإمة ومثقفيها، حين نتغافل ولا نهب عن بكرة أبينا، لنمحو هذا التجاهل، ونرفض هذا العقوق.. ونجلى صورة العمالقة الكبار، لهذه الأجيال التي تتوق وتتشوق لثقافة جادة وعلم متميز ومعرفة هادفة.

وأنا هنا أشير إلى الأستاذ الأديب والعبقري العالم المفكر الفيلسوف الكبير (محمد فريد وجدي) وعمله المعجز، والذي تمثل في موسوعته التي أدهشت معاصريه، وبهرت جيله الذي ظهر فيه، وصار الجميع يتساءل: كيف استطاع رجل فرد واحد، أن يقدم هذا العمل الضخم، وهذه الموسوعة المترامية الأطراف، في عشرة مجلدات في شتى العلوم والمعارف؟

وهي العمل الذي لا يقوى عليه إلا العصبة من العلماء المجدين المجتهدين.؟!

ولعلك تتعجب كثيرا حينما تعرف أن فريد وجدي نشأ عصاميا في تعلمه، وأتقن الفرنسية، وطلب من والده أن يعلم نفسه بنفسه بلا مدرسة ولا مدرسين، وكان ذلك بعد أن أتقن العربية، وراسل الصحف التي كانت تنشر له، على اعتقاد أنه شخصٌ كبير السن والعلم والخبرة، وذلك لجودة ما يكتب، ونضج ما يطرح، كان يقرأ صباح مساء دون عائق، يقرأ في الدين والكون، والاجتماع والطبيعة وعلم النفس، حتى اكتسب علما غزيرا أهله للتأليف وهو في سن العشرين!

وكانت كتبه كثيرة، ومقالاته يدفع بعضها بعضًا، يعالج قضايا الأمة والمجتمع بوجهة نظر إسلامية.

وفي ظل التخبط الثقافي الذي كانت تتعرض له الحالة الثقافية، رأى وجدي أن يضع للأمة هذه الموسوعة، حتى يبني ثقافة الجيل في كثير من العلوم العقلية والنقلية والطبيعة والتاريخ والعمرانية وتراجم المشاهير، وفيها من الفوائد الطبية والعلاجية والوسائل الحيوية، ما يحتاج إليه الإنسان في سائر أحواله المعيشية، وما أن ظهرت حتى تلقفها الجمهور، ونفدت طبعتها الأولى، وأعيدت طباعتها مرة أخرى، ولكنها ومع مرور الأيام أصابها الإهمال، وضرب عليها النسيان بأختامه وسهامه، فما عادت الأجيال الصاعدة تعرف عنها وعن صاحبها شيئًا.!

وإذا سألت القراء عن طه حسين وإحسان عبد القدوس ويوسف السباعي ونجيب محفوظ، لوجدتهم يعرفون عنهم كل شيء، وإذا حاولت أن تطرح عليهم اسم محمد فريد وجدي، فسوف تجد على الوجوه تجهما مفزعا واستنكارا مريعًا، تعرف من خلاله أن هناك مؤامرة وخيانة للثقافة وغدرا في ظهر الفكر.. نعم نقولها بكل وضوح: إن تجاهل محمد فريد وجدي وغيره ممن حذوا حذوه، خيانة كبيرة للفكر والثقافة والمعرفة.

يصف العلامة البيومي همة هذا العبقري الجسور في تأليف هذه المعجزة فيقول: "اصطحب عزيمة الأبطال من ذوي الهمم النادرة ليقوم وحده بهذا الجهد الجاهد دون ملل، فكان مثله مثل من يعمد إلى جبل شاهق يسد آفاق الكون لينسفه نسفا بجهده الفردي، وليس عجيبا أن يفكر هذا التفكير، ولكن العجيب أن ينتقل هذا التفكير من حيز الخيال، إلى حيز الحقيقة، فلم تمر ثمان سنوات، حتى وجد القارئ العربي بين يديه موسوعة كبرى تجمع شتات المعارف"

ثم يلقي باللوم على الشديد على تعمد إهماله وإغفال قدره فيقول: " أيكون صاحب هذه الموسوعة الضخمة، منجزا في اتجاه واحد! ثم يصير مجهولا الآن من شبيبة، لا يشتهر لديها إلا روائي هابط أو مطرب متحلل أو ممثلة داعرة؟!"

وإذا كانت كلمات الدكتور البيومي غاضبة على هذا النحو، والتي ربما دفعه إليها انتمائه القوي للهوية الثقافية الإسلامية، التي كان وجدي من فرسانها وحماتها الكبار، فهناك من أدرك هذا الإهمال ممن الصحفيين الذين لا يحسبون على حراسة التراث وهو الأستاذ (داود بركات) رئيس تحرير جريدة الأهرام حينما كتب افتتاحية بتاريخ (٣/ ٤/ ١٩٢٥م) قال فيها: " رجل واحد مفرد، يقوم بعمل جاد يسهر عليه الليالي، لا ليتلألأ على صدره نيشان، ولا لتدفع له رتبة، أو يقام له حفل تكريم، والمسؤولون مشغولون بكل شيء عن العلم والأدب، لا يعرفون عن المؤلف إلا أنه أديب كاتب، على حين نجد المنافق والدساس والمداجي، يقدم على صاحب الدائرة في كل شيء، يقدم عليه بالمال، ينصب له أنصباب وبالمقام يرتفع ويعلو، وبالتقديم الذي لا ينتهي عند حد ، أما وجدي فإنه في عزلة، وإنه مجهول"

لم يكونوا أئمة الهدى!!

بعض الناس يتخيلون في رؤيتهم لبعض المفكرين والأدباء، أنهم نسخة بالكربون من الإمام ابن تيمية، ويشبهون بالتمام تلميذه الامام ابن القيم، ويتصورن أن هذا المفكر هو امتداد لصورة أبي حامد الغزالي، أو في درجة أحمد بن حنبل، وأنهم من التدين والالتزام إلى أبعد حد وأسمى مقام، وذلك لأنه دافع عن الإسلام وقيمه ضد المناوئين له والمنكرين لعظمته.!

والحق أن هناك لون إسلامي من المفكرين والأدباء، يحب الإسلام ويعظم تراثه ويحمي هويته، لكنه في حياته الخاصة والعامة غير ملتزم بالشكل الذي نظنه ونتخيله، وهو نفسه في حل من تصوراتنا له، حين عقدنا المقارنة بينه وبين غيره من الأئمة العظام كابن تيميه وابن حنبل، ومن ثم تحدث صدمة كبيرة لدى بعضهم إن علم من تاريخ أو في حياة هذا المفكر أو ذاك الأديب ما يتنافى مع معلوماته عن الالتزام الديني، ولا يستوعب الموضوع لدرجة أنه يُكذب ما نقل عن هذ المفكر، أو ما صور عن ذاك الأديب، لأنه لا يعرف كيف يصدق هذا، وهو الذي تخيل غيره.!

لقد كان العقاد رحمه الله، أعظم من دافع عن الإسلام في القرن العشرين، وكتبه عن الإسلام ورموزه علمت الملايين وإلى اليوم، فليس من حقك أن تعتقد أن العقاد كان شيخا معمما، وسنيًا متشددا يطبق الدين بحذافيره، بل قد أشيع عن الرجل أنه كان يعقد صالونه وقت صلاة الجمعة، وبعضهم رد ذلك، وكان يجالس النساء المتبرجات، وكان يحب ويعشق ويجاهر بذلك، وحياته كانت حياة عادية، لرجل لا يلتزم بالسمت الديني الذي يظنه بعض أبناء التيار الديني، بل إليه يرجع أبشع نقد وأبشع كتابات وجهها ضد بعض الزعماء الدينين في ذلك الوقت، حتى الرافعي الذي كان آية من آيات الله في الدفاع عن الإسلام، ودحض حجج منكريه، والتصدي لترهات وآفات طه حسين، لم يكن الرجل مسدل اللحية عظيم العمة، شديد التمسك بالسنة، لقد كان رجلا عاديًا يحب ويعشق ويجالس المتبرجات، ويرسل شِعره ورسائله في حب مي ليل نهار، وإن شئت فاقرأ كتاب تلميذه العريان (حياة الرافعي) وكذلك الأستاذ المحقق الكبير محمود شاكر، بعض المتخندقين في دروب الاسلام والتدين، يظن أن الرجل كان إمام أهل السنة، وشيخ الإسلام بلا منازع، لشدة دفاعه عن اللغة والتراث، ولكتاباته التي كانت تفوح غيرة على الإسلام، ولكن الرجل كان مدخنا شرهاً وكان يجالس المتبرجات، ولا ينعزل عن المجتمع الذي يدعونه متمدنا، حتى أصحابه والمقربين إليه، كان منهم من يعد من أبرز قيادات التنوير، وأبرز الأدباء الذين جسدت السينما أعمالهم، كيحيى حقي، وتأتي عايدة الشريف تلميذته النجيبة، والتي كانت حاسرة الرأس من عيون وزارة الثقافة، وصاحبة أشهر كتاب عن حياة أستاذها أبي فهر.

أذكر مؤخرًا أنني نشرت مقالا لأبي فهر، مصحوبا بصورة له وهو يدخن، فثارت ثائرة الغافلين، وانقلبت الدنيا رأسا على عقب، وهاجت وماجت وكأنني ألصقت جريمة بالرجل هو منها براء، أو أنني اتهمته بخرق المروءة والشرف، وصار بعض المتدينين الذين لا يحيطون علما بالرجل وشخصيته، يتنكرون للأمر وهالتهم الصورة، وراحوا يتحققون منها ومن صدقها، ومنهم من ذهب ليلتمس الأعذار ، وذلك كله لأنهم يظنون أن محمود شاكر في رتبة حسن البنا أو رشيد رضا، ومحمد عبده، والراحل الكريم بريء من هذا التصوير، وإنما أفهامهم وحدها هي التي ساقتهم لهذا

الظن، لأنهم لا يعرفون فقه التمايز والتوفيق والتجانس، الذي لابد منه لمن يلج حياة الفكر والمفكرين.

فليس معنى أني كتبت في الدين وعن الدين، ودافعت عنه وعن تراثه ووجوده، أن أكون شيخا وإماما من أئمة الهدى، وأصحاب اللحى والعمائم، شيء طبيعي وعادي أن يدافع عن الاسلام مسلم لا يلتزم به، ولا يطبق كل تعاليمه وسننه وآدابه، لكنه في النهاية مسلم وموحد، وينتسب لهذا التراث، وفرد من أفراد هذه الهوية، كما لا ينبغي لك أن تقف في وجهه لتقول له: حينما تنتهي من الجلوس مع المتبرجات، والإقلاع عن التدخين ، والتغزل في مي زيادة، تعالى بعدها وحدثنا عن الاسلام وانتدبنا للدفاع عنه؟!

بعض العقول قد تطالبنا بأن نغض الطرف عن خصائص هؤلاء، حتي لا ينصدم فيهم العامة ويعرضون عنهم، ويبقون على حسن الظن بهم، لكنني أؤمن بأنها حقائق نستوضحها، حتى لا يصاب بالريبة من يقابلها، كما أنني من الذين لا يؤمنون بسلطان العامة على الفكر، لأننا لو تبعنا وبغينا رضاهم، وتحسبنا حسابهم في كل شئ، فلن نكتب حرفا ولن نقرأ سطرا.

وبعض السطحيين يظنون من سطوري، أنني انتقص قدر هؤلاء الأماجد. وأتعقب سوءاتهم وزلاتهم حتى يعرض الناس عنهم، وحتى نهدم صورتهم في عقولهم.. وحاشى لله فما إلى ذلك قصدت أو عمدت، فهؤلاء قامات شامخة، ندين لها بالعلم والفضل، وإنما مقالنا يرد من يزدريهم بحجة ما ذكرنا من أحوالهم.

نحن أمام عقول غريبة، تحتاج إلى كثير من التوعية والفهم والإدارك في دنيا الفكر والمفكرين.

الهواية التي فقدناها

كان الوالد رحمه الله يصر في تربيته لنا ذكورا وإناثًا، أن يدربنا على الخطابة، ويعلمنا فن الإلقاء.. كما نتعلم في مدارسنا مختلف العلوم.. ولا أنسى مدى فرحته وبالغ سعادته بأول خطبة خطبتها في المسجد فور تخرجي من الجامعة.!

لقد كان من الجيل القديم، الذي يعد الخطابة حلية المتعلمين، وزينة المثقفين، وكان المتعلم قديمًا لا يكمل بهاء تعليمه إلا إذا كان خطيبا.. وكانت الخطابة هواية بين الشباب قبل الشيوخ، وكانوا يتسابقون ويتبارون فيها وفي إتقانها والبراعة فيها.!

وكان رحمه الله من أكثر ما يعجبه من ألوان الطرب في حياته، ليس ما يجده الناس من ألحان عبد الوهاب وأغاني أم كلثوم، كما يجده الناس في أذواقهم، بقدر ما كان يبهره إلقاء الخطباء البلغاء أصحاب البيان الأخاذ، وكان كثيرا ما يحدثنا عن الدكتور عبد العزيز كامل وبيانه المشوق، وسعيد رمضان، الذي كان يلهب الاسماع والقلوب بإلقائه الرنان، والدكتور مصطفى السباعي وخطبه العصماء.!

ولا يفوتني أن أذكر أكثر اللحظات التي كان يمتعض فهيا، فينما يستمع لخطيب ليس أهلا للخطابة وغير مؤهل لها ولا يمتلك أدواتها.! ولعلنا في هذا الزمان، لا نعرف عنها شيئا ولا يقترب منها أو يهواها شباب اليوم، أو يدرك حتى أنها كانت هواية المثقفين في يوم من الأيام.!

غاية ما يدركونه أنها مهنة الأئمة والوعاظ وخريجي الازهر، وأن من يقترب منها أو يمارس أشكالها، فإنه يكون شبيها بشيوخ الدين.. بينما الخطابة في المقام الأول كانت صنعة الزعماء والقادة والملوك والمجاهدين.!

وكان الأديب الاستاذ إحسان عبد القدوس يقول:" كنت وأنا طالب في المدرسة لا تفوتني مناسبة، سواء كانت وطنية أو اجتماعية، إلا وأقف فيها خطيبا بين زملائي، وفي لحظات أملك عواطفهم وأهزها هزا عنيفا، أبكيهم على زميل توفى أو أحمسهم في مظاهرة، أو ألهب أكفهم بالتصفيق لفريق كرة القدم، عندما نقيم له حفلة تكريم في مناسبة فوزه"

ولعلنا نقف وراء السر الذي جعل للخطابة هذا القدر من العناية والاهتمام والممارسة، وهو الذي أرشدنا إليه الشيخ الأديب عبد العزيز البشري في كتابة (في المرآه) حيث قال: "ارتاح سعد لمهنة المحاماة لأجل الخطابة، وارتاح للزعامة لأجل الخطابة، وهو يرتاح لكل ما فيه منفذ للخطابة. ولا غرو، فقد مَنَّ الله عليه بموهبة عظيمة، لا يمن بها على كثير من عباده، فهي لا تفتأ تتطلع للظهور

فأنى أصابت منفذًا أطلت منه، فلو أنك عرضت على سعد ملك الرشيد على أن يهجر الخطابة، لنأى عنه بجانبه، ولرجع مهرولًا إلى الزعامة، فإن أفلتته فإلى المحاماة.

نقل إلى بعض خاصته الذين يحجبون بابه، أنه استأذن يومًا لوفد من الوفود، وكان سعد في ذلك اليوم لَقِسَ النفس، متبرمًا بالناس لكثرة ما لاقى منهم، فقال له: اعتذر، فقال إنهم يلحون، قال: فَأْذَنْ لهم على أن يسلموا وقوفًا وينصرفوا، فأدى إليهم الرسالة ودخلوا، وأقسم لي الحاجب أنهم لبثوا في حضرته ساعة وبعض ساعة، وهو لا ينقطع عن الخطابة.

كنت بحضرته يومًا، وقد مثل أمامه وفد من الوفود فمد بصره إليهم، وقال: من خطيبكم؟ فلما لم يصب فيهم خطيبًا، كاد يُعرض عنهم لولا حاجته إلى مناصرتهم.

لذلك تقربت إليه الوفود بالخطباء، وشاع في نفوس النشء حب الخطابة تشبهًا بسعد، فكثرت الخطباء، وفي كثرتهم مظهر من مظاهر النهضة الوطنية المباركة، فسعد مدرسة لا تقفل أبوابها، يؤمها الطلاب من أنحاء القطر."

وكانت الحركات والأحزاب والدول والدعوات، إذا أرادت النجاح فلابد لها من الخطباء الجيدين، الذين يمثلون اليوم جهاز الاعلام الذي يؤثر في الجماهير ويجذبها لاعتناق معتقداتها وأفكارها.

ولا تعرف دنيا الخطابة داعية وخطيبا سحر الناس بإلقائه، وروعة بيانه، كما سحرهم حسن البنا، فما يسعك إلا أن تستمع إليه مرة واحدة، حتى تجد عقلك وقلبك وكل جسدك منقادا إليه مطواعا لأمره متأثرا بفكره، وإلى هذا السحر.. سحر الخطابة يرجع السبب الأول لنجاح دعوته.! بهذا وصفه كل من استمع إليه وحضر خطبه.!

ولعل هذا الظهور لحسن البنا واستخدامه لسلاح الخطابة في نشر دعوته، قد هيأ كثيرا من الشباب في تقليده ومحاكاته، مما شكل دعما جديدا لفن الخطابة وهواياتها.

ولعل هذا الإدراك لأهمية الخطابة وسحرها الأخاذ، لم يكن لدى العرب فقط، فقد كان هتلر من أخطب الزعماء وأصحاب الإلقاء الساحر المؤثر، وكان يتدرب عليها باستمرار ويمارس فيها الإشارات ويتعلم الهيئات التي تجعل حركاته ولمساته مؤثرة جذابة.. وإليها يرجع الفضل في احتلاله للقلوب وتأثيره عليها وإقناعه للجماهير.. ألقى هتلر خلال فترة حياته السياسية أكثر من

خمسة آلاف خطاب، وتمكن عن طريقها من السيطرة على آلاف الأشخاص الذين وعدهم بأن الإمبراطورية التي سيؤسسها ستستمر آلاف السنين.

إحياء الأدب الحقيقي

أرى الأدب ينهدم ركن عزيز من أركانه، حينما يتوجه الجيل برمته إلى كتابة القصة والرواية، ويهمل أدب المقالة، الذي كان منذ بضع عقود، سيد الأدب وتاجه المحلى، بل كان شارة الأدباء العظام من الجيل الماضي، وشغلهم الشاغل، وعنايتهم الفائقة.

لقد خرج لنا تاريخ الأدباء العظماء، بأسمى كتب الأدب التي كانت تعرض المقالة، وظلت إلى اليوم ذلك المنهل العذب الذي يغترف منه الأدباء ثروتهم وفنونهم ومعارفهم ومكاسبهم، التي تستهويهم في الفن والتعبير والبيان.

فإلى اليوم يظل فيض الخاطر ومقالات العقاد ووحي القلم، كواكب مضيئة من ذلك الزمن الخلاب، بنجومه الزاهية من أصحاب المواهب والعباقرة الكبار.

المقالة تستدعي الثقافة والمعرفة والعلم، لكن الجيل الحالي تعمد الهروب منها لقلة الثقافة والمعرفة، وطرق باب القصص والرواية، لأنها تعتمد الخيال وحده، وبعض الحالات من الكتابة بالوجدان والشعور والاحساس، وهو ما يقتضينا بكل أمانة أن نعترف ونُقر أن الميدان الحقيقي والفسيح للأدب لم يطرقه الجيل للآن ولم يهتم به.

وليس معنى هذا أن كتاب القصص والروايات ليسوا مثقفين، بل منهم مثقفون، وأغلبهم لا ثقافة لديه، ومن ثم لا يتجاسر أن يدلف إلى عالم المقالة الأدبية، لأنها أكبرى وأقوى من إمكاناته وحصيلته، أو لأنها تكشفه وتعرف الناس بهويته.

لقد كان الإبداع والجمال على صفحات الرسلة الزياتية، وغيرها من الصحف التي كانت الجماهير تنتظرها بفارغ الصبر، حتى تستمتع وتعايش وتعاين ملاحم الأدباء وإبداعهم عبر المقالة الأدبية، في النقد والفكر والأدب.

نحن نريد جيلا جديدا يطرق هذا الميدان بقوة، ويهوى المقالة التي تفرض عليه التوسع الثقافي والمعرفي، نريد قادة في النقد والطرح الفكري، الذي يتجسد في الطرائق الأدبية بأسمى ما تظهر فيه وتتحلى به.

كان الأدباء والقراء حينما يمسكون بمجلة من المجلات، لا تستهويهم القصة أو تشدهم الرواية، وإنما كانت آخر شيء ينظرون إليه ويجذب اهتمامهم، لقد كانوا يسارعون بشغف ساحق إلى المقالة لينظروا ماذا كتب العقاد والرافعي والمازني والمعداوي؟ كان الواحد منهم يحترق وهو يكتب المقالة بكل كيانه ووجدانه، وكان الجمال كل الجمال ينسكب من مدادهم وسنون أقلامهم.

كانت المقالة هي الكشف الحقيقي الذي يعرف الناس بالكاتب والأديب، كانت هي البيان الحقيقي الذي يقول للناس من أنت وما قيمتك وما وضعك وماذا تكون؟

في عام ١٩٠٥ كان الميلاد لعملاق الأدب العربي آية الله في البيان مصطفى صادق الرافعي، وكان لابد له أن يكشف عن نفسه، ويعرف بذاته، وينتزع لنفسه المكانة بين كبار الادباء والشعراء، فكتب في مجلة الثريا، مقالة بلا توقيع عن طبقات الشعراء، وأخذ يصنفهم إلى مراتب ودرجات، ووضع نفسه في المرتبة الأولى، وأهاج الدنيا عليه، وأحدث المقال ضجة كبيرة، وتأهب الجميع للرد عليه، ردودًا غاضبة ومنها نابية، فقال خليل مطران: لولا أننا عجبنا من فرض دعوى هذا المتبجح وأمثاله من الذين لو نقد الشعر نقدًا صحيحًا لما كانوا حجابًا على باب محكمة.

ورد حافظ بقوله: إلى صاحب المقالة المشهورة الذي كتبها من نفسه إلى نفسه، أرجو محو اسمي من الدرجة الأولى، وإثباته بين أصحابي في الدرجة الثانية.

وكتب المنفلوطي يرد عليه: إن هذا المجهول لما ضاق أمره، وقصرت به خطاه، عن مجاراة أدباء العصر، حاول أن يضع نفسه في صف الفحول، وأجرى هذه الموازنة الحمقاء، ووضع نفسه في الطبقة الأولى.

ورد الرافعي، وعرف الجميع من هو الرافعي، واستطاع أن يحفر لنفسه مكانة هائلة بين أدباء العصر وحكمائه.

بل أخضع هؤلاء الفحول أن يكتبوا عنه، ويشيدوا به مقرين ببراعته وألمعيته، حتى خصومه وأنداده، فقد قال عنه العقاد: "إنه ليتفق لهذا الكاتب من أساليب البيان، ما لا يتفق لكاتب مثله من كتاب العربية في صدر أيامها الأولى"

وقال عنه الزيات :" الرافعي أمة وحده، لها وجودها المستقل، وعالمها المنفرد، ومزاجها الخاص، وأكثر الذين كرهوه هم الذين جهلوه"

وكان كل هذا الإنجاز أو هذا الإعجاز بالمقالة الأدبية، التي تكتب في كل لون من ألوان الحياة، وتسبغ غور الأدب وتغوص في أعماق البيان، فهل يراه هذا الجيل مقامًا كبيرًا عليه، وبعدًا شاهقًا لا يطاله أو يناله، ويفرون منه إلى القصة والرواية؟!

بل كانت الجريمة الأكبر فيما يسمى اتحاد كتاب مصر، الذي حرم الأدباء الحقيقيين من الانتساب إليه، وفرض من الشروط على المتقدمين أن تكون لهم أعمالا قصصية وروائية، ولولم يكن، فلا حظ له من هذه الشراكة، ولا ينال شرف الانتساب، وهو جهل مركب ووشروط سفيهة لا تقبلها الحياة الأدبية.

ابحثوا في تراث الأدباء الكبار وأعلام البيان من الجيل الماضي، فلن تجدوا القصة إلا لونا من ألوان الأدب طرقوه، وكانت لهم بصماتهم فيه، لكن مجالهم الأكبر وميدانهم الفسيح في المقالة الأدبية، بل إن بعضهم لم يكن له باع في القصة أو الشعر بالقدر الملموس، لأن الأدب الحقيقي والقوي الذي عرفه، كان في المقالة التي تُظهر ثقافته وفكره وعمق رؤاه، كما كان العقاد تمامًا حينما قال بسيطا من الشعر وألف رواية يتيمة.

الأجيال الصاعدة في مصر تغيرت ثقافتها واهتمامها الفكري تغيرًا كبيرًا مع مرور الزمن وتكتل الأيام عن الأجيال السابقة.. ولكن للأسف كان تغيرا للأسوأ.. وانحدارا للأردأ.. كنت أطالع ما كتبه الأستاذ الكبير (محمد جلال كشك) عن نفاد أو نفاذ طبعات كتابه (كلمتي للمغفلين) وغيره من كتاباته الفكرية الرصينة.. وتأملت واقعنا الثقافي اليوم.. وتساءلت: هل يوجد كتاب ثقافي أقبل عليه الشباب، والتهمه محبو الثقافة والقراءة كما كانوا قديما يلتهمون الكتب؟

احذر أن تقول لي: إنه لم يعد يوجد مثقفين كفء يستحقون الاقبال علي كتبهم؟

فمازال هناك الكثيرون منهم.. لكن العيب فينا نحن وفي عقولنا وفي شبابنا، الذين يتم أو تم التآمر عليهم بحجة الوهم الكبير وهم الرواية.. فقد صرنا نسمع عن نفاد طبعات متتالية للروايات ومجموعات القصص القصيرة؛، بصورة هستيرية.. وحينما سمعنا عن نفاد طبعات كتاب فكري.. كان للأسف كتاب (أسرار المعبد) الذي كتبه رجل لا يتحرى الحق، ويطفح قلمه بالبهتان والزور. وكنا قديما نسمع عن الكتب التي تزلزل الحياة الثقافية المصرية، وكلها كانت كتبا فكرية، ولم يوجد بينها رواية واحدة، اللهم الا روايات تعلن الإلحاد بغرض الشهرة وإثارة الرأي العام.

كنت أدرب بعض الشباب والشابات في ورش تعلم فن الكتابة. فراعني ما وجدت من ظنونهم وفهمهم عن القلم والكتابة.. لقد كانوا يعتقدون أن معني أن تكون كاتبا وصاحب، أي تكون كاتبًا للقصص والروايات، ومعني الحرفية في الكتابة، أن تحترف كتابة القصة والرواية، وأن الغرض من تعلمهم هذه الفنون، حتى تيسر لهم صياغة القصة والرواية.

تعبت معهم كثيرا حتى أغير هذه المفاهيم المعوجة الغريبة.! وأضع في أذهانهم إكبار الفكر والعناية به وأهميته، وضرورته للأمة والمجتمع.. لكنني مفجوع لما تكشف لي بأن ما يحدث مؤامرة على ثقافتنا.

الاستعمار القديم الذي جسم على بلاد مصر.. لم يفته أن يجسم أيضا على عقول أبنائها ومثقفيها.. ففي زمنه شهدت مصر حركة مسعورة من ترجمة الكتب والروايات الأجنبية، وغزت بها كل مكان في مصر وأعلت شأن قرائها.. وروجت لها وصار الشباب يقبلون عليها بكثافة.. ولولا أن كبار الأدباء في هذا الوقت قد تربوا على التراث الأدبي الإسلامي لضاعت معالمه.. كم كان رائعا حينما قرأت لتوفيق الحكيم وهو في حيرة شديدة حينما حزم حقائبه للسفر إلى فرنسا، وكان يتساءل هل يحمل هذه البذة - البدلة - التي تعز عليه، أم يحمل كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه؟ وما أسفرت حيرته أن انتصر العقد الفريد على حساب الشياكة والملابس، التي هي من ضرورات الحياة في فرنسا.. وكان يسير به في الشارع ويصطحبه معه في القهاوي.. ومن هو؟ إنه توفيق الحكيم أعظم الأدباء ومؤلفي القصة والرواية والمسرحيات.

لكي تكون كاتبا وأديبًا

بعض الكتاب المبتدئين يريد ويطمح أن يكون كاتبًا من لا شيء، هكذا بالأماني والهوى دون أن يتعب ويجتهد ويفكر ويتأمل ويدرس ويحفظ أو يتعب نفسه في شيء.

إنه يعتقد أن الموهبة في نفسه وأن الحنين الذي يجده في أعماقها للقلم، قد استكمل أدواته وغاياته، وما عليه فقط إلا أن يكتب، أو ينتظر الأفكار التي تهطل عليه من السماء كي يكتبها، فإذا كتب كان هناك نقص كبير، وتبدى العوار بين سطور هذا القلم، الذي لم يتعلم ولم يتدرب ولم يكلف نفسه عناء المشقة في الدرس والمعرفة.

إن أولى الخطوات التي تبني بها قلمك، وتسلح بها فكرك، وتُنعش بها وجدانك، أن تهيم في أعماق اللغة، وتتعايش مع جمالها، وتنسم مع سحرها من خلال القرآن الكريم، وكتب التراث الأدبية، التي تلهمك ثروة في الفكر والمعرفة والأدب، وتجعل منك كاتبا مهولا غني العبارة، ثري اللغة، غزير البلاغة، وافر المعرفة، مبهر الثقافة.

ثم لا شك تعرج على كتابات الأدب في العصر الحديث، فتقرأ لطه حسين والرافعي والعقاد والزيات وغيرهم، من هؤلاء الكبار الذين لم يصلوا إلى ما وصلوا إليه من هذه المراتب العليا، إلا عن طريق ما ذكرته آنفا من الولوج في كتب التراث، ينهلون منها البلاغة والعلم والأدب، كما لم يوجد فيهم من لم يعترف للقرآن وأثره عليه في رقي لغته وارتفاع بيانه، فكلهم يدينون للقرآن الكريم بالفضل الكبير، والأثر الغائر، يجدون شكيمته في أقلامهم، حتى وإن كانت أفكارهم عنه شارده ولغايته منكرة.

حتى أنا فلا أعد نفسي مثل هؤلاء الكبار فأين هم وأين أنا، بل هم مني كمثل النجوم في السماء تواجه الحصى في الأرض، لكني أعد هذا الحراك الذي يشعل قلمي، والقدرة على رسم التناغم بين العبارات، إنما يرجع الفضل فيه لأثر القرآن ودراسة الأدب القديم في صروح المعاهد الأزهرية.

انظر هنا فيما قرأت لك، وتأمل كيف نمى هذا العظيم في دنيا الأدب والنقد، إنه الناقد الأدبي الكبير دكتور محمد مندور، لنتطلع إلى بدايات نشأته وانطلاقة تكوينه الأدبي؟!

حينما كان مندور في مدرسة طنطا الثانوية، رزقه الله وبعض زملائه معلمين كرامًا، أعطوهم دروسًا خاصة في الأدب العربي، ولكن على أي شيء كانت تقوم هذه الدروس؟ لقد خصصوها لقراءة صفحات من أمهات الأدب العربي القديم، مثل العقد الفريد والكامل، ومنذ ذلك الحين تأثر مندور بالأدب وأحبه، وأدرك أن هذه الكتب هي مسار تهذيبه لنفسه ولغته، وكأن مندور قد عرف الطريق، ووجد الغاية وشعر باللذة، فصار يدخر كل ما يستطيع من مال، ليشتري أمهات الكتب العربية القديمة، وبدأ بما قرأه على غلاف الكامل للمبرد، وهو قول أحد شيوخ الأدب أن أمهاته أربع: الأغاني للأصفهاني، والكامل للمبرد، والأمالي للقالي، والعقد الفريد لابن عبد ربه، فاقتناها مندور جميعًا وهو في أواخر المرحلة الثانوية.

وهكذا كانت البداية، وكانت النشأة، وكان الهوى الذي خرج أديبًا من العيار الثقيل، ترك بصماته في دنيا الأدب حينما صار من الرواد، كما ترك لنا آثاره القوية التي تدل كل كاتب وأديب على طريقه الذي يسلكه لكي يحقق هذه الغاية.

ويقول فتحي رضوان:"بالنسبة للأدب العربي أنا محب قديم لأبي العلاء المعري، ولا أنقطع عن النظر في أمهات الكتب العربية القديمة، كالعقد الفريد والكامل، ونفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب.

وأعتقد أننا لابد أن نعيد الصلة بين المتأدبين في بلادنا ، وبين هذه الكتب وأمثالها، لأني لا أتصور أننا سنستطيع أن نقدم إسهاما أدبيا ذا قيمة عالمية، ما لم نقرأ أدبنا القديم، ونتناثر به ونهضمه، بالإضافة إلى صلتنا الحية بالأدب العالمي"

ومن نصائح الرافعي لأبي رية قوله: "فالكاتب لا يبلغ أن يكون كاتباً حتى يقطع هذا العمر في الدرس وطلب الكتابة، فإذا أوصيتك أن تكثر من قراءة القرآن ومراجعة الكشاف (تفسير الزمخشري). ثم إدمان النظر في كتاب من كتب كالبخاري أو غيره ثم النفَس في قراءة آثار ابن المقفع (كليلة ودمنة واليتيمة والأدب الصغير).. ثم رسائل الجاحظ، وكتاب البخلاء، ثم نهج البلاغة ، ثم إطالة النظر في كتاب الصناعتين للعسكري والمثل السائر لابن الأثير ثم الإكثار من مراجعة

أساس البلاغة للزمخشري. فإن نالت يدك مع ذلك كتاب الأغاني أو أجزاء منه والعقد الفريد، وتاريخ الطبري فقد تمت لك كتب الأسلوب البليغ."

حسد الكبار

ويح الغيرة.. إنها على قدر بشاعتها ووحشتها ولهيبها، إلا أن لها صورًا زاهية، وفوائد جمة، ومشاهد إيجابية مضيئة، نعم.. فعلى قدر ما تَجُر من الحسد، والذي ربما يتطور للحقد والبغض والعداء، إلا أنها أثبتت في بعض المواضع، أنها جيدة ومطلوبة، كتلك التي يكون فيها منافسة شريفة وسباق راقي، ولعلك تجد هذا أكثر ما تجده، في الغيرة بين العلماء والكتاب، أو الأدباء والمفكرين والصحافيين، فإذا ألف أحدهم كتابًا، سارع الآخر ليؤلف كتابًا، وإذا كتب أحدهم موضوعًا أو مقالًا، هرول نظيره أن يكتب موضوعًا أروع، أو مقالا أكثر إثارة وبريقًا.

وهؤلاء جميعًا يصدق فيهم مقولة القائل: "يغار العلماء كغيرة التيوس في حظائرها" وهذه الغيرة على قدر ما تفسد النفوس وتقتل الود، على قدر ما تُثري الحياة الثقافية والعلمية، وهو نفس ما حدث في عصر الأدباء والمفكرين في الثلاثينات والأربعينات والخمسينات والستينات، حيث انتشرت المعارك الأدبية، وقدمت للثقافة أزهى عصورها وأنضر مراحلها في الزمن الحديث.

انظر لهذين الكتابين من أعظم كتب الإسلام وأجل أسفاره، وهما شرحي البخاري (فتح الباري) لابن حجر العسقلاني و(عمدة القاري) للبدر العيني، كان الإمامان يعاصر بعضهما بعضًا، وكانت بينهما غيرة شديدة وجفاء، دفعتهما إلى نوع من التنافس في الإبداع والتأليف والحراك العلمي، وقد بلغت المنافسة بينهما حدًّا بالغًا، فتبادلا عبارات القدح والهجاء والتشهير، مما يخرج عن مناهج الجدل بين العلماء، والتوقير والرزانة والهدوء والحكمة.

ففي عام (٨١٧هـ) بدأ ابن حجر تأليف شرحه فتح الباري على صحيح البخاري، فأتبعه البدر العيني بتأليف كتابه عمدة القاري غيرة ومنافسة، وكان البدر العيني يطلع على شرح ابن حجر جزءًا جزءًا، فيشرع لانتقاده في مواطن كتابه، ويعترض عليه بطرق لا تخلو من عنف وتحامل، وحينما تقرأ في العمدة، لا تجد العيني يذكر ابن حجر بالاسم أو الكنية أو اللقب، في كل المواضع التي ينتقده فيها، ولكنه يكتفي بقوله: (بعضهم)، ثم يُسند إليها قال أو ذكَرَ أو زعم أو نحوها.

وكان من نتائج هذا الصدام العلمي الرهيب، انعكاسات مهمة على الساحة العلمية، حيث أدت إلى ظهور كتاب (عمدة القاري في شرح صحيح البخاري)، والذي سطر فيه اعتراضاته على فتح الباري، حيث دُهش ابن حجر حين اطلع على عمدة القاري، وعجب من تحامل العيني عليه، مما اضطره أن يرد على اعتراضات العيني على شرحه، فألحق تعديلات بكتابه، بعد ظهور عمدة القاري، وألف كتاب (انتقاض الاعتراض) وكان مما قال فيه بعد البسملة: "اللهم إني أحمدك على ما ألهمت من المحامد، وأشكرك على فضلك البادي والعائد، وأستنصرك على كل معاند ومُكائد، وأعوذ به من كل شر وحاسد"

وهكذا صار أحدهما يفتش وراء صاحبه لينتقده، أما الآخر، فصار يجود مادته خشية الانتقاد.

ولكن ابن حجر علق تعليقًا ساخنًا مدويًا على عمل البدر العيني، فذكر صراحة أنه يأخذ كلام غيره فينسبه إلى نفسه من غير اعتذار، قال في كتابه انتقاض الاعتراض: (وما ظننتُ أن أحدًا يرضى لنفسه بذلك، وإذا تأمل مَن يُنصف هذه الأمثلة، عرَف أن الرجل هذا عريضُ الدعوى بغير موجب، مُتشبِّعٌ بما لم يُعطَه، مُنتهِبٌ لمخترعات غيره؛ ينسبها إلى نفسه من غير مراعاة عاتِبٍ عليه، وطاعن مِمَّن يقف على كلامه وكلام مَن أغار عليه، ولو حلَفتُ أنه لم يُخْلِ باباً من أبواب هذا الكتاب على غزارتها من شيء من ذلك لَبَرَرْتُ، وشاهدي على ذلك عِدْلٌ من كلامه نصاً لا اختصاراً، بل مُصالقةً ومُناهَبَةً، حتى إنه يغفل فينقل لفظة " قلتُ " الدالة على الاختراع له والاعتراض منه، ويكون ذلك كله لمن سبقه.!)

ولم ينس العالمان وهما في ظل هذه الغيرة الطحون، والجفوة العاصفة، ما بينهما من دين وحقوق، فرغم هذه المشاحنات التي قادت إليها المنافسات؛ فإن العيني قد عاد ابن حجر في مرض موته سنة ٨٥٢هـ، ومات العيني بعده بعامين.

وإذا كانت هناك غيرة سامية تسوق للإبداع، فهناك نوع من الغيرة المؤذية التي تسوق للاضطهاد والحسد.. ولك أن تتعجب أن تظل نفس هذه الروح، تسري مع الزمان والأيام، فتنتقل من أنفس إلى أنفس، وذوات إلى ذوات، فبينما كان هذا الشقاق بين العيني والعسقلاني، كان مثله في الزمن بين علمين من أعلام الإسلام الكبار، واسمين من أسمائه اللامعة، فقد "رحب صاحب المنار (محمد

رشيد رضا) بالكتابات الدينية للأستاذ (محمد فريد وجدي) كما زاره في دمياط، وكان يكتب لأصدقائه يُثني عليه، ويرجو له أتم التوفيق، وحينما أصدر وجدي كتابه المدنية في الإسلام، قرظه تقريظًا رائعًا، وقرنه بكتاب رسالة التوحيد للإمام محمد عبده، وكانت صداقة قوية عتيدة، ولكن الغيوم أخذت تتلبد في أفق رشيد، حين أصدر وجدي مجلة الحياة، وكأنه رأى فيها منافسًا قويا للمنار، رغم أن اتجاه وجدي في تحرير الحياة، مختلف عن توجه رشيد، وإن اتفقا معا في الهدف الأصيل وهو الدفاع عن الاسلام، ونشر تعاليمه.

وكان الأحرى برشيد أن يؤيد صاحبه ويؤازره، بدلا من عدائه الصارخ له، والذي أعلنه حينما أنشأ مدرسة علمية، كان هو أستاذها الأوحد، وإذا به يفرد في صفحات المنار مقالات نارية للهجوم على وجدي، دون أي ذنب قد اقترفه! بل هاجمه لأنه عمل عملا صالحًا يحسب له وكان لابد أن يحمد عليه، وما أن ألقى وجدي أولى محاضراته عن فلسفة التشريع، في مدرسته التي أسسها باسم (مدرسة العلوم العالية) وقام بنشرها في جريدة اللواء، حتى ركبت الحمى نفس رشيد، واندفع يخط في المنار تهكمًا صارخًا على الرجل، واتهمه بالجهل والافتراء على الإسلام، والإتيان بأمور لا يعرفها، وأخذ يشهر به، بل نشر في المنار ، مقالا مسهبا من ٢٥ صفحة، يرد فيه على مقال فلسفة التشريع، ورمى الرجل بالإفك والغش وعدم الأمانة، والحق أن رشيد قد انحدر لهوة سحيقة من النقد والاسفاف في الخصومة، وهي منزلة غير معهودة عليه ولا تليق به، خاصة إذا كانت موجهة لزميل كفاح، لقد قال عن الاستاذ وجدي:

إنه لم يتعلم في المدارس، وسقط في التعليم الحكومي.!

وليته اقتصر على النقد العلمي، ولم يجرح شخص الرجل، ولكن يبدو أن الغيرة منه ومن فعله، كانت عنيفة شديدة، لم يطق معها صبرًا أو يتحمل من كبرها شيئًا.

وطبيعي أن يثور فريد وجدي، وأن يكتب ردًا يكشف فيه أسباب التجني، وله العذر في ذلك كل العذر ، ولكنه بعد همود ثورة الغضب في نفسه، عادت إليه أناته، فكتب في العدد التالي من مجلته الحياة يقول: "ربما كانت هذه أول مرة قابلنا فيها الإساءة بمثلها، ويجب أن لا تحفظ هذه الملزمة في

مؤلفاتنا، ونرجو من حضرات القراء رفعها عنها، هدانا الله لخير الأقوال والأعمال، وحفظنا من زلات الأقلام."[1]

وقد حكي عنه أنه كان يتناقش مع السيد محمد رشيد رضا في مسألة، ولما احتدم الجدال صاح فيه السيد رضا قائلاً: أنت جاهل؛ فسكت رحمه الله ولم يرد وانتهى الموقف، ولما سأله أحد تلاميذه قال: أنا والشيخ رشيد رضا في خندق واحد، ولنا فكرٌ مشترك، وإذا كنا ننادي بالرفق مع خصوم الإسلام لنستدرجهم إلى سماع ما لدينا؛ فإن الرفق مع أصحاب الاتجاه الواحد أدعى وأولى.

والمرء حيال هذا الموقف يتعجب لصنيع الإمام محمد رشيد رضا، إذ كيف له أن يكون منه هذا الموقف الذي لا يقع فيه إلا الجهلاء أو ضعاف النفوس؟ لكنه وهو الإمام الكبير، كان موقفه غريبًا غير سوي، لكنها نوازع الغيرة، قد تحمل النفوس على ما لا تطيقه عزائمها إن كانت من ذوي العزائم.!

تحية للصعايدة

هل تصدقني لو قلت لك: إنني أحيانا أجل الإخوة الصعايدة في توارثهم لموضوع الثأر.! ورغم ما فيه من بعض الجاهلية، والخروج على القانون، إلا أنني وجدت نفسي مجبرًا على تقديره حينما رأيت أناسًا لا تنبض قلوبهم بالوفاء، أو مشاعرهم بالولاء، تجاه آبائهم الذين قتلهم المستعمر الغاشم، وصاروا يتوددون إلى هذا المستعمر ويتمنون رضاءه، ويتعاونون معه ويرونه سبيل تقدمهم ونهضتهم في الحياة.! بل يرقبون ذلك اليوم الذي يقبلهم أن يعيشوا في بلاده وينعموا بنعيمه؟!

وهكذا وبجرة قلم يشطبون تاريخًا مرًا سالت فيه دماء آبائهم وأجدادهم، وسكنت في أجسادهم رصاصات الغدر والخسة والطمع والجشع والظلم والطغيان، وعلى أعواد المشانق علقت أجسادهم لتكون شاهدة على شراهة الإنسان ووحشيته وظلمه لأخيه الإنسان.

والحق أنني أعد حال هؤلاء، ليس من قبيل النسيان والغفلة، بقدر ما هو من جبلة الخيانة والتفريط في الدم والعرض! نعم عرض هذا الوطن الذي استباحه من ينشدون ودهم اليوم.!

[1] - راجع كتاب محمد فريد وجدي الكاتب الإسلامي والمفكر الموسوعي، للدكتور محمد رجب البيومي

هذا تمامًا ما حدث لدينا في مصر حينما حاول نفر من المعتوهين المتغربين أن يفعلوه يوما، فاحتفلوا بمرور (٢٠٠) سنة على ذكرى الحملة الفرنسية على مصر، وهؤلاء أراهم لا يستحقون شرف الانتماء لهذا الوطن، وهم يغطون على جرائم المستعمر، ويحاولون تجميل قمعه، واستباحته لأرضنا ودمائنا وهتكه لأعراضنا، ولله در القائل: نحن تماماً كمن يؤرخ لحياته باقتحام اللصوص لداره، أو من تؤرخ لمجدها بانتهاك عرضها، لأن الأمة التي تؤرخ لنهضتها باحتلالها.. أمة لا تستحق الحياة.. ولا تستأهل شرف النهضة أو اليقظة.

ولا نعرف كيف أقدم هؤلاء على هذا الجرم وهذا الخلط في زمن مضى، والحملة الفرنسية لم تجف دماؤها من أرضنا.. والعدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦م والذي شاركت فيه فرنسا، مازال ماثلاِ في الأذهان، وأعلامها مازالت إلى اليوم ملطخة بدماء مليون شهيد من أبناء الجزائر الحرة الأبية.

إن الأحمق الحقيقي هو من تتحول مشاعره العدائية التي يفرضها الدين والواقع والإنسانية إلى إعجاب وانبهار وتقليد!

وعجبًا لأمة تعظم جلاديها، بل عجبًا لقوم يقدسون من أهان مقدساتهم وقتل آباءهم وأهان بلادهم؟!

ولعل الذين ينافحون عن دور الحملة الثقافي واهمون متكلفون فيما يدعون، فما فعلته لم يخدم مصر في شيء، بقدر ما خدم أهداف فرنسا الاستعمارية وخطتها للغزو الفكري.

وما أروع وصف الدكتور هيكل في قوله: " أدعو الذين يتساقطون على الغرب كالذباب أن ينظروا إلى احتفال الإسبان في العام الماضي بمرور ٥٠٠ سنة على طرد المسلمين من الأندلس.. كما أدعوهم إلى قراءة مذكرات المسيو (بورين) سكرتير نابليون الخاص، الذي يقول بالحرف الواحد في مذكراته: "كنتُ أتولى كل ليلة كتابة الأوامر بإعدام اثني عشر سجيناً من القلعة، وكانت جثث القتلى توضع في ركائب، وتغرق في النيل وكان كثير منهم من النساء، ممن نفذ فيهن أحكام الإعدام الليلية، بل وتخلصنا من الباقين برميهم بالرصاص، دون أي إجراء قانوني سوى توقيع بونابرت"

فاروق يقرأ

هل تتخيل لو قلت لك: إن فاروق الذي اتهموه بالمجون والعربدة، ونسبوا إليه كل مهانة وفسق وفجور، كان يقرأ وكان يتصفح، وكان يحب الأدب ويكرم الأدباء ويحب المسرح؟

لقد كان يقرأ ما يُكتب عنه، حتى ولو كان نقدًا، لقد عمد عبد الناصر وزبانيته، إلى تشويه صورة فاروق حتى يُظهر تميزه، فصبت آلته الإعلامية الفاجرة زورها وضلالها على شخص فاروق، وليس معنى هذا أننا ندافع عن فاروق، أو نبرئ ساحته، وإنما نريد فقط أن نقول: إنه كان يقرأ ويتذوق ويُعنى بالأدب ويؤمن به، ويكرم الأدباء، وأنه لم يكن أكثر سوءًا من ناصر وعهده الذين جلبوا على مصر الفقر والضياع والهزيمة في ٦٧.

في مقاله الشهير عام ١٩٥٠م كتب أمير الصحافة (محمد التابعي) تحت عنوان (يحيا الظلم) حيث قال فيه: "نعم يحيا الظلم، ظلم كل جبار عاتية، معتز بسلطانه وسطوته، يدوس القوانين ولا يبالي، وظلم كل كبير فاسق، وكل عظيم فاجر، يسرق ولا يبالي، ويختلس ولا يبالي، ويثلم الاعراض ولا يبالي.. ويهدر الكرامات ودم الوطن ويجعل من مصر أمثلة السوء، وبصقة كريهة في فم الزمن، نعم يحيا الظلم، ظلم كل مطالب باحترام القانون ولا يحترمه، وكل قادر على حماية القانون ولا يحميه، وظلم كل عابث ماجن مستهتر إباحي يضرب للناس أسوأ الأمثال.. نعم يحيا الظلم لأنه مرب للنفوس، ونفوس المصريين تجيش اليوم بمعنى واحد، لقد صبرنا طويلا، ولن نصبر بعد اليوم، وتحملنا كثيرا ولن نتحمل بعد اليوم."

لقد قرأ فاروق هذا المقال، وأشار على هذه العبارات الساخنة التي سبق ذكرها، ثم سأل بعض حاشيته ورجال ديوانه، من العظيم الفاجر الذي يسرق ويعتدي على الأعراض؟ فسكتوا ولم يجيبوه، وعاد يسألهم: من الذي يعنيه ويقصده التابعي؟ ولم يجب كذلك أحد بشيء، فابتسم ابتسامة صفراء، لأنه عرف من سكوتهم أنه المقصود.

وكم كنت أتمنى لو كان الأستاذ التابعي حيًا إلى اليوم لأسأله: ماذا لو أنه كتب مثل هذا الكلام في عهد ناصر؟ ما الذي كان سيناله من جزاء وعقاب، إنني أنوب عنك يا تابعي فلا داع لبعثك من موتك حتى تجيب، لا شك أنك كنت ستدفن حيًا في التراب، أو يسلخ جلدك ويكسر عظمك، وتذهب وراء الشمس، لكن من كتبت عنه ووسمته بالطغيان والفجور والظلم والعتو في الأرض، سمح لك بأن تكتب هذا الكلام العنيف، وسمح لك بأن تنتقده هذا النقد المهول، وسمح لنفسه بأن يقرأ نقدك فيه وما كتبته عنه، فصبر عليك وتحمل ثورتك وتجاوزك.

لا أعرف لماذا يجنح القلم وكأنه يدافع عن فاروق، ويصب جام غضبه على عبد الناصر وعهده وطغيانه، ويترك الموضوع الأساس الذي يُحدثكم فيه، بأن فاروق كان يقرأ ويتذوق الأدب ويكرم الأدباء، ولكنها محطات تفلت من القلم غصبًا، لأن الإشارة إليها واجب أخلاقي وقيمي.

لقد كان الأدب في نظر فاروق ميزان يزن به الأدباء، ويهتم به ويراه محركًا للفكر والانطباع عن الحكم والحياة وطبيعة الناس، فحينما ألف الشاعر عزيز أباظة مسرحية العباسة، فهم البعض من تفاصيلها، أنها تؤيد حق الملك في التصرف في وزرائه، وقد وصل هذا الانطباع إلى فاروق فاهتم بالمسرحية، لأنه قد اختلف مع وزارة الوفد وبطش بها، وحينما مثلت المسرحية حضرها فاروق، ودعي المؤلف لكي يسلم على الملك، وفي نهاية المسرحية أوقفوه أمام المقصورة في انتظار دخله، فسمع النقراشي باشا يقول للملك وقتها محتجًا، هناك وكلاء وزارات لم يأخذوا الباشوية، فكيف نعطيها لمدير أسيوط فأجابه فاروق: أعطيها له عشان الأدب، ودي ملهاش دعوة بالوزراء، وبعد أسبوعين أقيم حفل شاي في عابدين، ودعي الفنانين الذين قدموا المسرحية، وأعطى عزيز أباظة لقب الباشوية، كما أعطى سليمان نجيب ومحمود تيمور البكاوية، ولم يدم هذا الود طويلا، فبعد أن ألف عزيز أباظة مسرحية الناصر، والتي صور فيها فساد بيت الحكم، وانعكاس فساده على البلاد

كلها، فلا يمكن للأمة أن تتقدم أو تنهض.. غضب عليه فاروق، وعرف أنه تعريض به، فاضطهده، وإذا وجده في مكان لا يسلم عليه، وضايقه كثيرًا.

لكن يبقى أن نقول ونسجل أنه لم يقتله.

يا كتاب الرواية انتبهوا

الكتابة إحساس ومسؤولية وقيمة.

الكتابة عمل صعب ليس باليسير، خاصة حينما تكون صاحب قلم مسموع له تأثيره ودويه فيمن حوله.. ومن هذه الصعوبة ومن هذه المسؤولية، ومن هذا الإدراك للقيمة، كان البحث والجهد والدراسة والتأمل للأدباء الكبار، الذين أرادوا أن ينتجوا شيئا مؤثرًا وقويًا ومعبرًا تعبيرًا صادقًا عن المناخ الذي يكتبون فيه.

الروايات التاريخية التي نتعرض لها اليوم، لم تكن حينما كتبها أصحابها عملا يسيرًا هينا، لا يضني صاحبه ولا يُعيه، مادامت قد توفرت مادة هذا العصر، لقد كان لها قيمة كبيرة، حينما يسوقها الخيال وهي تجسد ملامح العصر الذي تتحدث فيه وعنه، ولكي يكتبها الأديب، كان لابد له أن يعيش هذا العصر ويذوب فيه عبر الدراسة العميقة القوية، التي تملك القدرة لتحمله عبر آلة الزمن من عصره الذي يعيش فيه، إلى هذا العصر الذي يريد الحديث عنه.

كان كثير من الكتاب الحاذقين الذي نجحت رواياتهم، يرفضون العجلة والتسرع حتى تستوي معارفهم ودراساتهم إلى حد التمكن والتوغل، وهم يكتبون رواية تُشعر القارئ أنها تحيط بملامح هذا العصر كله، وأنها تعيش طبيعته في كل صغيرة وكبيرة.

وأنا أتمثل هنا نموذجين من أُدبائنا الكبار، الذين تجشموا عناء الكتابة في الرواية التاريخية المعتمدة على الخيال، الذي يستقي أركانه ومعالمه من طبيعة العصر الذي يحكي ويعبر عنه، ليكونا مثالا نحتذي حذوه، لنخرج شيئا قويا ومعبرًا ومبدعا.

كان الأول هو أديب نوبل (نجيب محفوظ) الذي كتب عدة روايات في التاريخ الفرعوني، ورغم أن أمه كانت هي السبب المباشر في حبه وهوايته لهذه الحضارة القديمة، عن طريق ولعها بزيارة المتاحف والآثار وحجرة الموميات والاهرامات وأبو الهول ودار الاثار المصرية، إلا أن هذا الهوى وحده، لم يكن كفيلا أن يدفعه إلى الكتابة عن الحضارة القديمة، وإنما لابد من دراسة عميقة قوية حتى تكتمل ملامحها في مخايله.

أخذ نجيب يحضر محاضرات قسم الآثار في الجامعة المصرية بعد الظهر، ودرس تاريخ مصر الفرعونية بأكمله دراسة وافية توشك أن تكون دراسة متخصص.

قرأ نجيب التاريخ المصري القديم بنهم شديد، وتعرف على كل ما يزخر به من حياة اجتماعية وعلوم وفنون وآداب، قرأ فيه بتوسع غير عادي، مما ساعده على استخراج عشرات الموضوعات لروايات عديدة، وبالفعل بدأ يكتب ثلاث روايات كل مادتها من هذا العصر رادوبيس وكفاح طيبة وعبث الأقدار.

كانت روايات ممتعة خاصة كفاح طيبة التي أذهلت الناقد والأديب سيد قطب فور صدورها، فامتدحها وكتب عنها، ولفت الانتباه لنجيب محفوظ، وتنبأ له بمستقبل أدبي واعد وقد كان، وقال له عبارته المشرقة: لو استطعت أن أطبع هذه الرواية وأطوف بها لأوزعها على كل بيت في مصر لفعلت.

أما النموذج الثاني الذي نظهر له عنايته الفائقة بالتاريخ، فهو الأديب الكبير (محمد فريد أبو حديد) الذي كان يدرس التاريخ أثناء عمله كمدرس، وشُغف به وقرأ فيه كثيرًا، خاصة دراسة التاريخ

المصري في القرنين السابع عشر والثامن عشر، حيث فيهما تقع الأحداث التي تمهد وتبشر بصحوة الوعي العربي السابقة لمحمد علي، كما جاء في حواراته مع فؤاد دواره، حيث أكد أنه لم يكتف بمجرد الدراسة بل تعلق عاطفيًا بهذه الحقبة، والتي كان هذا التعلق هو التمهيد الأول لكتابته لأول رواية تاريخية عن ذلك العصر، وهي ابنة الملوك في سنة ١٩١٨م، ولكنها لم تنشر إلا عام ١٩٢٤م، وقد رسم فيها صورة مصر كما بدت له من دراسته التاريخية.

كذلك كانت روايات أخرى كالزير سالم، التي حاول فيها أن يرسم الروح العربية من خلال دراسته للتاريخ العربي القديم، سواء كان أدبًا أم تاريخًا أو فلكلورًا، وكتب الملك الضليل عن مأساة الشاعر الجاهلي امرئ القيس، ورواية عنترة بن شداد، واستوحى كذلك من دراسته للتراث العربي رواية سيف بن ذي يزن، ورواية زنوبيا وآلام جحا.

وأمام هذا الجهد الكبير.. حق لهذه الروايات أن تكون رائدة في متعتها وجمالها وإبداعها وتصويرها، لأنها نابعة من دراسة وتأمل وإحاطة وجهد وعرق وتعلق وشغف.

المقدمة الظالمة

منذ أيام مثل بين يدي كتاب تحت عنوان (مقدمات أحمد أمين) وهو كتاب جاءني هدية مع المجلة العربية في نحو ١٢٥ صفحة، وكان من ضمن ما تصفحته مقدمته لكتاب (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) للسيد الإمام الداعية الكبير أبو الحسن الندوي رحمة الله تعالى.

والحق أننا أمام مقدمة أحمد أمين لهذا السفر العظيم، يمكن لنا القول: بأن الرجل لم يكن يدرك خطورة الموقف، وقيمة هذا الكتاب، الذي وقع بين يديه وقدمه للجمهور، والذي سيكون فيما بعد من أعظم الكتب والمراجع، التي تدور عليها محاور الثقافة الإسلامية المعاصرة، بل إن أمين لم تكن له الرؤية الثاقبة الواعية، الكفيلة باكتشاف هذا النجم الواعد في سماء الثقافة الاسلامية والعربية، التي ستشرق وتغرب فيما أقل من عقدين، والتي قدر لها أن تظهر على يد الأديب المفكر (سيد قطب) الذي كان يتسم باكتشاف المواهب، والتخمين بما سيكون لهم من نبوغ كبير، وأثر مدوي في

الحياة الأدبية والفكرية، كما فعل مع نجيب محفوظ وتنبأ له، وعرف الناس به، وكتب عنه وعن روايته كفاح طيبة.

ولم يكتف أمين بالتجاهل والغفلة عن قيمة الكتاب فقط، وإنما حاول التقليل من شأن صاحبه فقال: (ومعذرة للقارئ إذا رأى في الكتاب بعض عبارات غامضة، فإن الكاتب الفاضل هندي الأصل والثقافة، مثقف ثقافة عربية بجده واجتهاده، على أن الكتاب والحق يقال فيه تشبيهات بليغة رائعة، وهو يدور حول فكرة جليلة)

هكذا وانتهت القضية، وكأن أمين بهذه السطور القليلة البسيطة في هذه المقدمة التي جاءت في ثلثي صفحة، يمن بها على الكتاب وصاحبه، وكان السبب فيها، أن الندوي نشر الكتاب في القاهرة عام ١٩٥٠م وقدمه للجنة التأليف والترجمة والنشر، التي كان أحمد أمين رئيسًا لها، واضطر لهذا الموقع أن يكتب هذه المقدمة التي اتهمها كل القراء، بأنها باهتة ضعيفة هشة، لا تليق بمكانة مثل هذا الكتاب القوي صاحب الذكر المدوي.

احتل الكتاب مكانة كبيرة ومرموقة في الأوساط العلمية والأدبية والدعوية والدينية، بسرعة عجيبة لا تفسر إلا بأهمية موضوعه، وقيمة محتواه، فوقع له هوى في قلوب القراء العرب، وقرئ على نطاق واسع من المثقفين والمعنيين بقضية الدعوة الاسلامية.

بل لقد جاء الكتاب في توقيت حاسم، كان الجميع في حاجة إليه للتسلية والعزاء عما أصاب الدعوة وقتها من تشريد واضطهاد، فقرأه الشباب وحفظوا عباراته ورددوها في المحاكم.

لقد كان موضوع الكتاب خطير جدًا في صدوره في هذا التوقيت، حينما حاول الكثيرون يرجعون تخلف المسلمين في تراجعهم عن أسباب الثورة الصناعية والنهضة الغربية الحديثة، حيث جاء الكتاب ليؤكد قصة أخرى ومعنى مختلفا في ميدان آخر وهو تأكيده للعالم كله: حجم الخسارة التي مني بها وأصابته بتراجع المسلمين عن دورهم الحضاري.

والكتاب أوصى به كل مفكري الإسلام الكبار، كأحد أهم روافد الثقافة الاسلامية كما ذكرنا، والتي تقف بالمسلم على الواقع المعاصر، وموف الإسلام ومكانه منه، كان الجميع يوصون به القراء والطلبة والمتعلمين، بل وصفه أحدهم: بأنه من خيرة الكتب التي ظهرت في هذا القرن.

وعنه قال العلامة (محمد يوسف موسى) بعد أن قرر دراسته في جامعة الأزهر: أشهد لقد قرأت الكتاب حين ظهرت طبعته الأولى في أقل من يوم، وأغرمت به غرامًا شديدًا، حتى لقد كتبت في آخر نسختي وقد فرغت منه: إن قراءة هذا الكتاب فرض على كل مسلم، يعمل لإعادة مجد الإسلام.

وفي الوقت الذي نوه فيه أحمد أمين بضعف الكتاب في بعض المفردات، واستسمح القراء أن يغفروا ذلك لصاحبة لأجنبيته، كتب آخرون أن أهم ما يميز الكتاب هو أسلوبه الواضح، والقدرة القوية على استثمار التراكيب العربية واختيار العناوين ووضع الشواهد في أسلوب مكين واضح.

وبعد هذا الزمن الطويل، تظل مقدمة أمين التي صارت اليوم تراثا من تراثه، مقدمة غريبة باهتة ضعيفة، لا تليق وحجم هذا الإنجاز الهائل المدوي، وقد جزم كثيرون أن أمين لم يقرأ الكتاب أصلا، اللهم إلا قراءة سريعة ألمت بفكرته دون التعمق في عظيم قدره، وعمق نصوصه.

أما سيد قطب فقد أمعن في معاني الكتاب وأعطاه قدره اللائق به في مقدمة طبعته الثانية، فكان مما قال فيه:

"هذا الكتاب من خير ما قرأت في اتجاهه، وعلى قدر ما أثار في من الحماس والاستثارة الوجدانية، فقد اعتمد على الحقائق الموضوعية وعرضها على النظر والحس والوجدان، إنه صورة جامعة تعرض رقعة العالم وتصفها وصفا بينا لا يعتسف المؤلف فيه ولا يستبد به، والكتاب يتميز بالفهم العميق للروح الإسلامي ويعد نموذجا للبحث الديني والاجتماعي والتاريخي."

القراءة والقذارة.. لا يجتمعان

اقرأ ما شئت أن تقرأ

اشتري بمالك ما شئت من الكتب

تحدث هنا وهناك بما قرأت وما عرفت وما أحطت.

ليعرف الجميع بأنك كهف الكتب، ومنبع الثقافة، وموئل المعرفة، وخزينة الأسفار، فإذا ما حار أحدهم يومًا ماذا يقرأ؟ فإنه لا يسأل غيرك.!

وإذا ما أضناه البحث عن كتاب لا يجده إلا عندك، تفعل كل هذا حتى صرت معلم الثقافة، وعراب القراء، وشارة المثقفين.

ولكن وأمام كل هذه الهالة، هل سألت نفسك يومًا ما أثر هذه الكتب فيك؟

وهل غيرت القراءة من ذاتك شيئا؟

ما أثرها في أخلاقك وطباعك وصفاتك، هل غيرت منك شيئا؟ هل هدتك إلى الفضيلة؟ هل علمتك مكارم الاخلاق؟ هل ارتقت بروحك وذوقك ومعاملاتك مع الناس؟

إن القراءة إذا لم تفعل شيئًا من هذا فال قيمة لها ولا مقام ولا وزن.!

أتعجب لأديب يكتب الروايات الأدبية بأشكالها الراقية، التي تمس شغاف النفس والروح، حتى أن الشباب يعدونه بطل الأدباء وقائدهم وإمامهم، ينظرون له بإكبار ويعدونه قدوة يخطون خطاها.. كل هذه الظنون تعبث بعقل الناظر وخياله، وتفرض عليه ما تريده من وهم.

حتى إذا ما كلمت هذا الأديب أو تحاورت معه، وجدت عجبًا، حيث تجده سليط اللسان، قذر العبارة، نجس الفكرة، ينطق بأبشع الكلمات، ويهذي بأسخف النكات التي لا فضيلة فيها ولا احترام ولا شرف، حتى يتركك في حيرة من أمرك، حيث تتساءل: كيف لهذا الأديب الذي قرأ كثيرًا من الكتب، والذي يفترض له أن يكون ملائكي الروح أن يكون مصطبغًا بهذا القذارة متلونا بهذا العفن؟!!

لتكتشف الحقيقة الكبرى أن الكتب ليست بالمعجزة التي ترتقي بأخلاق الناس، فهي وسيلة للراغبين، ومددا يؤهل طلاب القيم والأخلاق.

ومن يومها تيقنت أن القراءة التي لا تهدي صاحبها للأخلاق، ولا تهذب الروح، باطلة لا قيمة لها.!

بل أدركت أن الكتب مهما جمعت من حشودها وكدست من صفوفها، فإنها إذا لم تعلم صاحبها معنى الرقي والسمو، فما أرخصها وأبخسها وأهزلها.!

والذين يقرؤون للمتعة فقط، لا تعدو القراءة لديهم أن تكون شهوة كأي شهوة، لكنها أبدًا لا تكون مناط تربية وتعليم وتهذيب.!

أما الذين يقرؤون لتهذيب النفس وتربية الوجدان وإصلاح الطباع واستقامة الذوق، فهؤلاء هم من يعرفون معنى القراءة الحقيقي، ويدركون مغزاها الذي أقيمت له.

وإفادة النفس مما تقرأ، وإهمال الكتب حينما لا تفيد النفس في شيء، هو المعنى الذي أدركه أديبنا الكبير إبراهيم عبد القادر المازني حينما في حصاد الهشيم وهو يريد أن يشتري نسخة من ديوان المتنبي:

"وكنت كلما نزعتني نفسي أن أشتريه أقول: ما ضرورة ذلك، أليس خيرًا أن يحيا المتنبي في نفسي، من أن يعيش على رف في المكتبة؟ أترى الغاية، من الأدب هي اقتناء الكتب؟ لا وليست هي أن يكون المرء كثير الحفظ، أو مدمن القراءة لما لا ينتفع به، وحسب المرء من الكتب أثرها في نفسه، وفعلها في تهذيبها ورفع مستواها وفكرها، ولخير له أن يقرأ وينسى لفظ ما قرأ، بل معناه أيضا، ما دامت الفائدة قد حصلت، والنفس إذا كانت خصبة مستعدة، تنمي البذرة التي غرست فيها، وليس يمنع الماء أن البذرة تحت التراب مدفونة"

الإنسانية تجمعنا

ربما يكون لك من يختلف معك أو يعاكسك في آرائك واتجاهاتك، لكنك أبدًا لا يمكن أن تسميه عدوًا أو خصمًا.

فالعدو والخصم هو من يحمل لك صفات الكراهية والحقد، ويريد استئصالك من الوجود، لأنك تخالفه في الرأي والفكر والعقيدة.. وهؤلاء قوم مرضى معقدون قمعيون نرجسيون.

ولا يخفى علينا أن هذه العلة تصاب بها كثير من الاتجاهات والأفكار، وقد كنا نظنها قديما سمة المتطرفين في الدين وحدهم، لكن الأحداث الأخيرة التي ألمت بمصر، أثبتت أن العلمانيين هم أكثر الناس مصابًا بهذا الداء، وأنهم أكثر تطرفًا وانحرافًا وغلوًا، ألا تذكرهم ونحن نراهم يطالبون بذبح خصومهم بحجة الوطن والتقدمية والحداثة.

وإذا كان العلمانيون لا يردهم الدين ولا الضمير ولا الإنسانية، فإن المتطرفين دينيًا لا يعدو أحدهم أن يقرأ دينه بتمعن وبصيره، ليجده دينًا ساميًا رحيمًا عظيمًا، يقبل الآخرين، ويسع المخالفين،

ويؤمن بالتعايش، وينظر للمِلل الأخرى، نظرة عاقلة قائمة على الحوار والنظر والاعتبار والتعقل والتفهم والبرهان!

لكن اليوم الذي يدخل فيه السلاح ليحسم المعركة، فإنه نوع من الكفر بقدرة العقل على النضال، وإعلان بعجزه عن قيام دولة الإنسان، التي تقوم على أنقاضها دولة الغابة التي لا ينتصر فيها إلا القوي الغالب.

كانت هذه المعاني حاضرة في ذهني، وأنا أقرأ كيف مدح سيدنا محمد ﷺ ملك الحبشة النصراني، وهو يقر بفضله وصفاته من العدل والنزاهة، فيقول لأصحابه: إنه ملك لا يظلم عنده أحد.

وكيف استمتعت وأنا أشاهد رحمة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ؓ ورحمته تتجلى على هذا اليهودي العجوز حينما قال له: (ما أنصفناك إن أكلنا شبيبتك، ثم نأخذ منك الجزية، ثم كتب إلى عماله أن لا يأخذوا الجزية من شيخ كبير)

بل كيف أمر الإسلام العظيم بالتعايش السلمي والعطف على المخالفين في العقيدة حينما قال تعالى: "إنما الصدقات للفقراء والمساكين " والفقراء هم المسلمون، وهذا من المساكين من أهل الكتاب.

وقد نهى القرآن الكريم عن إكراه الناس على المعتقد فقال تعالى: {لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي}[1] فما عليك فقط إلا التبليغ، أما الهداية فليست إليك وإنما هي لله وحده، والله سبحانه يتولى في الآخرة حساب من أعرض {وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها}[2]

أما فكر الإقصاء والقمع والبتر والاضطهاد والتطهير العرقي، فلا يمكن أبدًا أن يكون له في ديننا أصل أو أثر أو دليل، بل إن مجرد إلقاء هذه الشبهة في حد ذاتها، أضحوكة تسخر منها العقول الواعية المطلعة البصيرة.

إننا لا نناط بالأدب مع المخالفين فقط، وإنما يحثنا ديننا وأخلاقنا وإنسانيتنا، على الرحمة والشفقة والرفق والتودد بهم، فإذا لم يجمعنا الإسلام، فإن الإنسانية هناك بيت كبير يجمعنا.

---

[1] - البقرة: ٢٥٦
[2] - الكهف: ٢٩

الانتصار على الورق

رغم أنني في مستهل حياتي كتبت كتابًا كاملا عن الرفق واللين، وأثرهما في الدعوة إلى الله تعالى، إلا أنني أجزم أنني تخليت عن هذا الخلق كثيرًا في بعض كتاباتي التي كانت تميل وتتسم بالعنف في التعبير، والقسوة في الوصف، لا أعرف هل كانت هذه طبيعة فيّ تعكس حبي للقسوة، أم أنها تعبير عن شيء أعجز عنه، فلا أخرجه إلا على الورق، أم أنها تأتي من فرط حماسي الزائد بالفكرة، أو نقمتي على من أنتقدهم؟

كثيرًا ما نصحني بعض شيوخي بالهدوء والأناة، والعرض اللين الرفيق، وضربوا لي مثلا بالعلامة القرضاوي، وكيف أنه لا يُهاجم أو يقاتل، وإنما يعرض فكرته في ثوب علمي مشوب بالرفق واللين والموضوعية، فإن قُبل فأهلا بذلك، وإن جافاه المخالفون، فلم يخسر شيئًا حينما احتفظ باللطف والأدب، ومن هنا وجدت كتبه قبولا عظيًما لاتسامها بالهدوء والحوار العقلاني، بعكس كتب الشيخ الغزالي التي كانت ثورة هائجة، تكتسح كل ما أمامها، مما لا يهواه صاحبها من صور الباطل المنفلت.

وقصد شيخي من هذا الكلام، ليس هو تفضيل كتب القرضاوي على كتب الغزالي، ولكنه يلفت إلى أن الهدوء في تناول القرضاوي في كتبه مما جعلها سهلة النقل والحوار والقبول لدى المخالفين، بعكس كتب الغزالي التي ربما تولد ثورة مضادة وعنادًا في قلوبهم.

وبرغم هذه النصيحة التي أحاول التزامها قدر المستطاع، إلا أن هناك أوقاتًا تجنح فيها النفس للعنف، وتميل إلى القتال، لعلها في هذه الحالة تشعر معها بمعاني العزة والكبرياء، أو أنها فقدت النصر على الأرض فتحاول الانتصار على الورق، ومع إيمانها الكبير أن العنف يثير عداوات القارئ لاسيما من يحملون الفكرة التي أصب عليها جام غضبي، إلا أنني مع هذا أصر على العنف في بعض التعبيرات، وكلما مر الوقت وعدى الزمن، أتخيل هدوءها وندرتها، إلا أنني في بعض الخواطر سرعان ما أجد حنينا إلى ما أريد التوبة عنه ومنه.!

ولا شك أن هذه الشدة أفقدتني كثيرًا من الأصدقاء الذين أحبهم وأكن لهم كل تقدير، وكانت الكلمات القاسية سكينًا باردة ذبحتُ بها هذه الصداقة رخيصة هينة، وما زلت إلى الآن نادمًا عليها،

مستاء كلما ذكرتها، ولكن هذا ما حدث، وهذا ما كان، وليت هناك من يخبر هؤلاء الأصدقاء، بأن قسوة القلم غضب عابر، لا يعبر عن حقيقته وأعماقه الأصيلة الطيبة، التي تمتلئ حبًا واعتزازا بهم.

ولكن أنى لي هذا وأنا أؤمن بقول الشاعر:

جراحات السنان لها التئام ** ولا يلتام ما جرح اللسان

والقلم هنا قد حل محل اللسان حين أخرج مقذوفاته بلا رقيب أو حسيب، أو خجل أو حياء.

يقول نبينا الكريم ﷺ: " « ما كان الرِّفْقُ في شيءٍ إلَّا زانَه ، ولا نُزِعَ من شيءٍ إلَّا شانَه »"[١]

ويقول: " من يحرم الرفق يحرم الخير كله"[٢]

فهل أعي وهل أفهم؟!

لقد كان العقاد يُهاجم ويجرح ويسخر ويستهزئ، وربما يسب في بعض الأحيان، كانت كل حياته معركة لا هدوء فيها ولا سَكِينة، كان يعشق القتال والمعارك الفكرية، وقد لا يمر يوم ينتهي فيه من معركة حتى يشرع في معركة جديدة، فصار هذا الحال أسلوب حياته، وغاية وجوده، كان الرجل عنيدًا صلبًا لا يلين ولا يستسلم ولا يكل من منازلة الخصوم، الذين كان يعييهم هذا الجلد وهذا الصمود، فينفكون عنه مسلمين أو معتزلين أو مهزومين.

وإذا كان العقاد مثالا للعنف والقسوة الأدبية، فقد كان هناك من كان مثالا للرقة والرفق واللين مهما احتدم الحوار، وتوهج النقاش، لا ينفكون على طيبتهم ولينهم، لإيمانهم به في نصرة الفكرة وعرض الحجة، لم يكن كرومر مجرد مستعمر عسكري بغيض، وإنما كان مفكرًا تغريبيًا عمد إلى إثارة الشبهات حول الإسلام وحضارته، ومن ثم انبرى له وقتها بعض الكتاب الكبار، للرد على ترهاته، ومنهم الأستاذ محمد فريد وجدي، الذي عمد في رده إلى اللين والحوار الهادئ، حتى نال إعجاب الزعيم مصطفى كامل، والتقى به محتفيًا في دار اللواء، وأخذ كامل يعبر لوجدي أنه مسرور جدًا من مبادرته بنصرة الدين، وكبت الملحدين، ثم قال له: هذا كله حسن، ولكنني أرى

[١] - صحيح الجامع.. صححه الألباني
[٢] - صحيح مسلم

في مقدمتك لينًا في اللهجة، لا يصح أن تكون عليه في رد مطاعن على الإسلام وجهها إليه رجل من غير أبنائه، لا هم له إلا جرح المسلمين، وتشويه سمعتهم.

فرد عليه وجدي بقوله: أليس إلانة القول مع قوة الحجة، خيرًا من الشدة التي ربما تنفره من قراءة البحث كله، فيفوتني الغرض من كتابته، وهذا فرعون قد ادعى الألوهية، وافتأت على الله تعالى فأمر الله تعالى نبيه موسى عليه السلام أن يقول له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى، كما أن الله تعالى أمرنا بذلك نصًا فقال: "ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة" وما الذي يضيرني إن ألنت له المقدمة استدراجًا، حتى إذا ما تورط معي في البحث، وأنست روحه مني قصد الحقيقة، اطمأن إلى الموضوع وأشرب قلبه.؟!

إن الرفق واللين هو منطق الحكماء، الذين ينتصرون للفكرة قبل أن ينتصروا لأنفسهم، إنهم أهل الرشد الذين يؤمنون أن القسوة أبدًا لا تولد إلا القسوة ولا تنتج إلا العنف والشطط والنفور.!

أقلام الصعاليك

إياك أن تظن أن الكتابة سهلة، وأن أمرها لا يعدو إلا أن تمسك بالقلم فقط، وتحكي ما بداخلك.. ربما يكون ذلك صحيحًا، ولكن عليك أن تدرك وتوقن، أن القلم الذي ليس له جمهور، قلم صعلوك لا قيمة له ولا تأثير، والمداد الذي ليس له قراء، مداد أبتر، وهو في حقيقته ليس إلا ماء تغير لونه بعارض من العوارض.

كثير هم أولئك الذين يكتبون، وقليل هم من يقرأ لهم.

ربما تظن أن الأسلوب الجميل، هو الضمان الأكبر لنجاحك ككاتب، ولكن ماذا بك لو رأيت رجلا جميل المظهر بهي الطلعة، وسيم الوجه، حلو الملامح، لكنه من داخله حقير تافه خسيس كذاب لص محتال؟!

كيف يكون حكمك؟

هل ترى فيه بعد ذلك شيئًا من جمال؟

أعتقد أن صفات الجمال فيه، ستتحول في نظرك بقدرة قادر إلى صفات سوء ورداءة وقبح.!

وهكذا يكون الكاتب الذي لا مضمون في كلامه ولا قيمة لما يكتب إلا العبث والهراء.

إنني أتعب على مقالي وأدعمه بالبحث، ولا أكتب أبدًا لمجرد الظن والشبهة، أبحث كثيرًا وأقرأ فيما أريد الكتابة فيه كثيرًا حتى أخرج بشيء صادق ممحص محقق، أضمن به تقدير القارئ واحترامه وإفادته.

كثير من الباحثين وقعوا في أخطاء كبيرة وأغاليط، ما لبثوا أن اعتذروا عنها فيما بعد، ولكنهم مع هذا نالوا شرف البحث والتنقيب، حتى توصلوا لنتيجة ملموسة، حتى ولو كانت خاطئة، لكن اللوم الكبير، يبقى في عنق هذا الذي يكتب بالشبهة، ولا يكلف نفسه عناء البحث والتفتيش عما يريد الحديث عنه، ليخرج في النهاية بكلام غير دقيق.

منذ سنوات نشر الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي، مقالا يحتفي فيه بكتاب للمستشار طارق البشري تحت عنوان "الحركة السياسية في مصر من سنة ١٩٤٥إلى سنة ١٩٥٢" والذي انتقد فيه حركة دينية نقدًا ملحوظًا، ولم يدر الكاتب والشاعر الهمام، وهو ما كشفه لنا كاتبنا الكبير (أحمد عز) رحمه الله وطيب ثراه، أن البشري تراجع عن أفكاره، واعتذر عن أرائه، حيث أصدر طبعة ثانية من الكتاب، ضمنها مقدمة كتبها في ٥ أكتوبر ١٩٨١ تحت عنوان "تعقيب ومراجعة"

قال فيه: "كنت خارجيًّا عنهم، ولم يتح لي فكري سبيل الولوج من بابهم، لأدخل دارهم واتطلع إلى شواغلهم، استخدمت مع غيرهم الموازين والمكاييل والتحاليل، وقستهم بالمتر، أو الشبر والفتر.. إن النظر الخارجي لهذه الجماعة، هو ما أعاقني عن التنقيب عن الدلالة الوطنية لشعبيتهم، وقد لزمتني سنوات بعد إخراج هذا الكتاب، لكي أعيد مع نفسي النظر في هذه النقطة، وأن أراجع الخريطة السياسية التاريخية كلها، في ضوء ما أسفرت عنه إعادة النظر تلك"

ذكرت سابقا كيف أن الأستاذ نجيب محفوظ، فقد ذكر أنه حينما أراد أن يكتب روايته عن مصر القديمة، والتاريخ الفرعوني، فإنه قد درس هذا التاريخ وأدمن النظر فيه، وتبحر موغلا في مراجعه إلى حد بعيد، وانطلق بعد ذلك فأنتج شيئًا مبهرًا جذب القراء، وكانت رواياته رادوبيس وكفاح طيبة والعائش في الحقيقة وعبث الأقدار، روايات كلها تشهد بهضم هذه الفترات واستلهام روحها، وكذلك كان أبو حديد بك.

بل كان هذا ديدن أديب العربية الأكبر، مصطفى صادق الرافعي، حيث وصفه تلميذه العريان بقوله: "إن الرافعي لكثير الأناة والتأنق فيما يكتب، فلا يبدأ في إنشاء موضوعه، حتى يخلي له فكره أيامًا وليالي يبحث ويوازن، ويزاوج ويستنبط؛ ثم يتهيأ للكتابة، وقد استوى الموضوع في فكره كأنما قرأه لساعته في كتاب.. كان يُجهد نفسه في الكتابة، ويحمل من همها ما يحمل، وما أعرفه حاول مرة واحدة أن يسخر من قرائه، أو يشعوذ عليهم، ليملأ فراغًا من صحيفته يريد أن يمتلئ؛ على أنه أحيانًا كانت تدعوه دواع إلى كتابة لم يتهيأ لموضوعها، أو يفرغ له باله، فيمليها على عجل بلا إعداد ولا توليد، لكنك كنت تجد عليها طابعه، وتعرف أنها له ولو لم يكن عليها اسمه"

وكان أحمد زكي باشا شيخ العروبة من أكبر المحققين الذين لا يكتبون إلا بعد تمحيص وتدقيق عميق بعيد المدى في هذا العمق، حيث يقول: " أنا أكتب مقالاتي بعد أن أضني فيها جسمي، وأسهر عليها ليلي، وارتكب فيها أكبر جريمة تستحق الشنق والاعدام..

نعم أنا لا أكتب إلا عن علم ويقين، وبعد أعمال الرأي الخمير، فإنني والله أقتل مباحثي قتلا فلا أخرج للناس إلا ما صح عندي أنه علم اليقين"

ووصفه أحد المقربين منه بأنه: " كان كثيرًا ما يمضي الليل لا تكتحل عيناه في نوم ويوصله بالنهار، ولا يلتقي له جفن بجفن، بل كثيرًا ما وصل الأسابيع بالأسابيع، وأدمج الأشهر في الأشهر مكبًا على تحقيق اسم واحد"

جدول المحتويات

.... ٢
مقدمة ٣
أرجوكم لا تقرؤوا ٥
السلطة وريد الثقافة ٦
أدباء في محنة ٨
سحر الشهرة ٩
القلم المقهور ١٢
متى يأتي الأمل ١٤
وتبدلت الأفراح ١٦
تعلم أن تستمع ١٨
أدبيات بلا قرآن.. عجبًا! ٢١
ويل للكاتب من الجاهل ٢٢
ننتظر مقالك عن البيضة ٢٥
الألسنة المتغربة ٢٨
حناجر الكافرين ٢٩
خيانة ثقافية.! ٣٢
مذبحة الشوقيات ٣٤
سقطة أمير الشعراء ٣٧
العربية ساحرة الشعوب ٣٩
إلا كتب المنافقين ٤٢
الكتاب الذي باع نسخة واحدة ٤٤
نعم أخطأت ٤٦
القهوة شعار المثقفين! ٤٨
تجاهل العمالقة ٥٠
لم يكونوا أئمة الهدى!! ٥٣
الهواية التي فقدناها ٥٥
إحياء الأدب الحقيقي ٥٨
لكي تكون كاتبا وأديبًا ٦٢
حسد الكبار ٦٤
تحية للصعايدة ٦٧
فاروق يقرأ ٦٩
يا كتاب الرواية انتبهوا ٧١
المقدمة الظالمة ٧٣

القراءة والقذارة.. لا يجتمعان ٧٥
الإنسانية تجمعنا ٧٧
الانتصار على الورق ٧٩
أقلام الصعاليك ٨١